شَوّاكة سوَيلم

توفيق حنون المعموري

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

شَوّاكة سوَيلم

رواية

توفيق حنون المعموري

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
الطبعة الاولى 2018

شواكة سويلم

توفيق حنون المعموري

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ او طبع او اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

First Edition 2018

Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq

Revised copyright © The Union of Iraqi Writers the right of the Authors of this work has been asserted in accordance with the copyright, Design and Patents Act 1988.

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

Printing : Dar Al-Rowad for Publishing and Distribution

1

كل شيء في هذا العالم ساكن ، ساكنٌ جداً ، ما من إنسانٍ يرفع صوته صارخاً .. ليس سوى صمت الواقع ، هذا الصمت الدافيء المنعش . هذا الصمت المفرح المحزن . كم هو جميل أنْ يكونَ المرءُ حياً في مكانٍ ما من هذا العالم ، وكم هو رائع أن يكون للمرء فيه بيتٌ صغير ، شرفةٌ لأوقات الصباح والظهيرة ، وللأمسيات الطويلة شتاءاً، حجراتٌ عامرة بالموائد والكراسي والأسِرّة ، صورٌ معلقة على الجدران متنوعة من أرقى مجلات الأزياء ، أو مأخوذة من رسومٍ لفنانينَ كبار . هكذا كان ظنّ سالم ، ليس شيئاً غريباً أومعجزاً أن يكون له مكان ما في هذا العالم ، في الصباح والظهيرة والمساء ، يحتاج الى أن يتنفسَ ويتقيأ ويتكلم وينام وينمو ، يحتاج الى أن يحيا ، يتحرك في الزمان والمكان ، يرى ويسمع ويلمس ، يضرب في أنحاء الأرض تحت أشعة الشمس دون أن يصرخ أحد في وجهه .. سويلم ، يا سويلم .

لم يكن ، سالم صيهود الشعلان ، يكره صيغة التصغير هذه (سويلم) منذ أن نبّهه إليها معلم الأبتدائية .. سويلم إبتسم يا سويلم، لِمَ هذا الوجوم ؟ غداً حين يتوقف المطرُ الأسود سيتحول كوخ أهلك الطينيُّ الى قصر منيف ، لا تحمل همّا يا سالم يا ابن صيهود الشعلان.

إعتقد سالمُ باديء الأمر أنه سيبقى فرحاً جداً ، إذ يسُرّهُ أنّ هذا العالم موجودٌ كي يُصبح في مقدوره أن يكون هو موجوداً أيضا .. فقط حين يكون وحده يشعر بالحزن من أجل كل شيء ، وأحيانا يشعر بالفرح إذ لا فرق عنده ، خصوصاً حين تجتاحُه الرغبة في أن يحلم ، ولو أن أحلامه باتت تتعبه أحيانا ، لسبب بسيط قد يكون هو الوحيد الذي يشعر به ، وهو أن أحلامه ليس لها حدود ، لأنها تسافر به الى كل مدن العالم وعواصمه التي لم يكن قد رآها في حياته .. شوارعِها ، بيوتها ، ناسها ، أحيائها ، حتى تلك المدن التي دُفنتْ في مقابر الزمن ، على الرغم من شعوره أنّ ما كان موجوداً منها قد مات ميتة أبدية ، لكنه يعيش معها في الوقت نفسه الى الأبد . إذ يدخل في روعه أن كل ما هو حي على هذه الأرض يحيا الى الأبد . هل هو مجرد همّ يتجدد عنده مع أزمنةٍ وأماكنَ ضاعت أم هو وميضُ أضواءٍ وأصوات تعطيه إحساساً بأنه لا يزال على قيد الحياة .لاحظ سالم في مرات عدة أنه حين يبعثر أشياءه يجد أن أحلامه قد تتبدّد ، وبالطبع ليس هو الوحيد من يحلم ، فالكثيرون في هذا العالم يفعلون ذلك ، يحلمون .

حين وضع أمامه خارطة العالم ، كان أطلس الأدريسي يشده بقوة نحو غوايةِ آدم الذي طرده الرب من الجنة وأنزله على الأرض، أنزله بالذات على أرضٍ تسمى أرض سومر .. هل هو الوحيد من أفراد نسله الذين جاءوا بعده من لا يعلم أنه نزل من رحم أمه وفي أية بقعة من الأرض في هذا العالم نزل ، بدا لنسل آدم المكانُ لأولِ وهلةٍ جميلاً : أرضٌ رخوة ، أنهارٌ متشعبة جداولُ ونواعيرُ وظلال نُخيلٍ وشواطيء ونوارسُ وقناطر .. ومُدن ، لكنهم فوجئوا بعد ذلك بأتونٍ يستعرُ بين الحين والحين ، فوجئوا بإله الحرب يفعلها دوماً ، يثير زوابعه فيرسم لوحاتٍ مزخرفةً للنار التي يتركها مُوقَدَةً يأكل بعضُها بعضاً ، لوحات اللامعقول تلك رسمت مدناً مكتظةً ومأهولة قد شملتها لطخات ألوان النيران ، بينما الزمن الزاحف يرسم هو الآخر خرائط جديدة للخراب المستمر على مر العصور .

لم يكن الادريسي يفكر أنْ سيأتي يومٌ يضيف فيه خطوطاً جديدةً على خارطته ليتحول العالم بفضل إله الحرب الى خارطة عشوائية فقد اضطر الى أن يرسمها بلا حدود نزولا عند رغبة إله الحرب ذاك حين أوحى اليه ذلك .

ــ (أيتها الأرض المليئة بالسواد ..أنا إبنك سالم صيهود الشعلان أُصِرّ على البقاء) ،

هكذا كان يكرر سالم ذلك دوماً .. ويضيفُ أحياناً ..

ـ (وهاأنذا أحلم بأبقاء جذوري مثبتة في غرينك ، على الرغم من أنك قد عَوّدْتِني أن أنسى النطق حين ينغرس لساني في القاع كي يبقى صراخي مكتوما) ، كان يشمّ رائحة النار وأدخنة الحروب حتى في أحلامه، يشمّها من خلف كواليس العالم.. ذلك هو السبب الأول الذي جعله لم يفكر يوما ما بالزواج ولحد الآن ، ولا زال يشعر أن ولداً جميلا لو كان تزوج لَمَنَحَهُ له إلهُ الخير الذي لا يزال يعبث بأفكاره منذ أن بعث إلهُ الحرب الى الأدريسي كي يُدِلّهُ على مسقط رأسه لكن الأدريسي بنفسه لم يجده على خارطته التي رسمها بيده معللا ذلك بسبب دخان الحروب الكثيف .. لماذا راح إله الحرب يستهدف سالم شخصيا ، حتى أن الأدريسي أسرّ سالماً مرة قائلاً :

– إن الولد الجميل لوكنتَ قد تزوجتَ فأنجبتهُ سوف تجدُ حينذاك على جسده كدماتٍ قال إله الحرب عنها أنها بصماتُهُ وآثارُ خطواته .

لذا فقد أحجم سالم عن الزواج ورغب عنه عنوة ، فهو يعلم علم اليقين أن إله الحرب ذاك ما فتئ يتحكم بالغرائب الخارقة التي تنتج المِحَنَ والمهالك ولا يكتفي باشعال أتونٍ هنا وآخر هناك حتى إنه يرسل الصواعق أيضا الى بطون النساء كي يحملن شياطينا يخرجون الى الدنيا ليساعدوه في تأجيج هذا الخراب . مع ذلك كان إله الحرب صديقا للأدريسي أيضا ، فصار الأدريسي ينفذ رغباته ويرسم خرائط للعالم بلا حدود كي تنشب الحروب بين الدول . هكذا هو إله الحرب لايهمه شيء سوى نشر الخراب

وإشاعة الدمار . لكل هذه الأسباب فقد أحجم سالم عن الزواج ، وها هو لحد الآن يتذكّر جيداً بأنه ومنذ ثلاثين عاما وعلى وجه التحديد في الليلة الأربعين من وفاة أبيه كيف أن إله الحرب قد أخرجه من بطن أمه ووضعه بين يديه وراح يهمس في أذنه :

– (منذ قرون وأنا أنتظر مجيئك الى هذا العالم يا ابن الشعلان ، على الرغم من أن أباك قد سمّاك (سالما) لكنك لن تسلم من فعلتي ، لابد أن أريك ما افعله حين ارسم زمنا شيطانيا مليئا بأحداث جسام وهكذا افعل مع كل المعذبين في الأرض وفي الأماكن التي نوهت الى صديقي الأدريسي ان يشير اليها على خارطته ، لقد رسمت لك بالذات كل الأبعاد من قبل عقود ثلاثة وها هو الزمن يجري وتلك هي الأحلام التي تراودك تؤكد ذلك .. فأين تتوارى ؟ والى أين تذهب ؟ لا تقولنّ لي شَطارَةُ عَيّارِين ، وإصقاعُ أرَضِين ، واسْعَوا في مناكبها ! ولا كل توافقات الهجرة ، أينما تكون ستطالك ناري الموقدة) .

لم يكن سالم يدري ولم يخمّن الى أيّ مدى يبقى حُلمُه يتمدد هكذا، فقد قادته أحلامه الى مدن شتى وتواريخ ذات أزمنة وأمكنة مختلفات، يودّ أن يحدثنا سالم أحيانا وفي هذه الأيام عن أن جدّه الأعلى هو الذي قاد قومه في الهجرة من اليمن بعد انهيار سد مأرب ليهرب بهم الى أواسط جزيرة العرب ، ثم حين طالها الجَدْبُ وتصحّرتْ تركها هو وقومه وراحوا يبحثون عن مكان آخر مُمْرِعٍ فلم يجدوا سوى أرض السواد وكان

أقرب موئل لهم نهر الفرات ولأن جده – الشعلان –كانت له أفكار مشتعلة دوما توارثها عن أجداده اليمانيين في الزراعة والفلاحة فقد انتعشت بقدومهم بلاد سومر حتى صار جدّه يُعرفُ بشعلان السومري ، أما هو نفسُه ، الحفيدُ السومري الجديد ، فلم يتسرب في دمه من ذلك الجد سوى التفكير بالهجرة بعد أن كان يَدّعِي بأن جذوره متشبثة بغرين هذه الأرض ، ليس لأنه أحبها أو ارتاح اليها بل لأن إله الحرب ذاك يفرضها عليه فرضا بعد أن حول أرضه الى منتجع له بل ساحة تجارب لمعاركه الكبرى . حتى صار سالم يبحث دوما عن تفسير لما يحدث ، منذ طفولته وهو يفعل ذلك حتى إنه أحيانا يجدُ أنه يبحث عن طريقة للعب الحر كي يبرر أحلامه التي تراوده بل تحاصره باستمرار بكل ما يقوم على الخيال كأنه واحد من آلهة الأولمب ، يشعر أن به رغبة للعب باستمرار باتت أحلامه تكبر يوما بعد يوم ، كأنه يعيش دوما في عصور موغلة في القدم ، بسبب الأتون غير المتجانس مع العقل الواعي ، وهو يعيشه مع أبناء جلدته على هذه الأرض المستعرة .

عقله الواعي ذاك يأخذه أحيانا الى فسحة يقتنص خلالها فرصة الأستمتاع بيوم جميل ، حتى إنه قد أختار في أحد صباحاته المشرقة أن يشتري لنفسه زمناً جديداً حين اشترى تذكرة لدخول دار السينما ، جدّد زمنه بقطعة نقود واحدة وحين خرج بعد مشاهدة الزمن الذي اشتراه وعاش كل أحداثه لساعتين من وقته تقريبا ، إشترى جريدة دون النظر الى

عنوانها واختار لنفسه مكانا في مقهى جابر الذي اعتاد الجلوس عليها وراح يقرأ : (العراقيون اكتشفوا إسماً جميلاً لبناتهم .. وئام !!)

(رئيس البلاد يجهل مكان آلاف المفقودين في الحرب المنسية).

شعر سالم حينذاك بأن العالم مَحْشُوّ بالطحالب والأشنات وربما الأخطاء أيضا ، إذ ليس هو الوحيد المزحوم بالخوف ، وليس وحده الذي لا يحق له أن يصرخ أو لا يحق له أن ينطق بما يريد ، وقد إكتشف أن كل ذلك بسبب ما يُعرف بـــ (الأخطاء) ، بل قد دخل في روعه .. أن من الأخطاء ما هو حلو ، بعضه بالشكولاتة والبعض الآخر بالكاكاو ، وخطأ ثالث بعطر اليانسون ، بصراحة هي أخطاء مُعَسّلة .. هل قرأتَم (سوزو في جزيرة الكتز) ، كان الكلب هو البطل ثم صارت البطولة من نصيب الأنسان ، هكذا محض خطأ في الرواية ، ثم عاد الكلب في نهاية المطاف بطلا للقصة نفسها ، إننا نسرق البطولة حتى من الكلاب ، أ ليس هذا من أخطائنا الحلوة يا صديقي ؟ أ لم يكن سالم صيهود الشعلان ، هو الأسم الخطأ للرجل الخطأ ؟، نعم هو الخطأ الأكبر ، أ ليس هو الذي لم يبقَ منه سوى إسمه المصغر ،، سويلم ، وذلك هو الخطأ المثلوم .

2

زار الأدريسي بلاد الرافدين مرة قادماً من بلاد الأدارسة في المغرب الأقصى بدعوة من أحد الآلهة ، لابد أنه إله الخير لأن الزيارة جاءت بعد أن توقفت العاصفة التي أطلقتها إحدى دول الجوار على عاصمة الشعلان ، جد سالم الأعلى .. تلك العاصفة التي دامت ثمان سنوات ، أي بمقدار عدد سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية بالتمام والكمال ، والهدف من دعوة الأدريسي لتلك الزيارة المفاجئة هو ترسيم الحدود بين الدولتين المتناطحتين ، ولأن الأدريسي صاحب الخطأ المشهور الذي بموجبه رسم خارطة العالم بلا حدود بين الدول ودون أن يضع دعامات تلك الحدود على الورق ، في تلك الجلسة لم يحضر إله الحرب سيء الصيت ، فقد استعمل حق الفيتو على هذا المشروع المناهض لعمله ، في هذه الجلسة أيضا قام إله الخير بتقليد الأدريسي الضيف بوسام الأبداع من الدرجة الأولى ومنحه شهادة تقديرية تثمينا لجهوده في محاولة لأبعاده عن إله الحرب ، طبعا كان ذلك لا جدوى منه .

تنفس سالم الصعداء وتنفسها الناس معه ، بعد أن انتهت الحربُ بين الجارين ، تناسوا قرابة المليون من الشباب الذين راحوا ضحايا أتونٍ عاصفٍ أشْعَل فتيله إله الحرب ، عاش الجميع عرسَ الأنتصار المزعوم ، ذلك العرس الذي ذكّر أم سالم بأن عرساً جميلاً ينتظرها ، هو عرس ولدها سالم ، بدأ الألحاح وعادت أمّ سالم تعيد طحن الرحى ، مرة تبكي وتنوح وتتحسر على شباب ولدها ومرة تدور في فمها هلهولة مكتومة تحاول أن تنطلق دون جدوى ، فيتحرك لسانها بكل مفردات الرجاء :

– أريد أن أفرح بك يا ولدي ، إن في فمي زغرودة لو أطلقتها لجمعت كل الكبار والصغار في محلة الشواكة بل كل الناس في الكرخ وربما الرصافة أيضا . فمتى تحقق أمنيتي..؟

غلبها النحيبُ الذي أوجع قلب إبنها ، الأمر الذي دفعه الى أن يوافق مبدئيا على الزواج نزولا عند رغبة أمه ولكي ينعم بسكوتها على الأقل ، بشرط أن تكون الفتاة التي تختارها له شوّاكية الأصل والفصل .

مرت الأسابيع وعبرت الشهور وأم سالم منهمكة في البحث عن الزوجة المرتقبة ، دارت على معظم بيوتات شواكتهم ، لكن .. لم تحصل القسمة .. كما كانت تقول.

أما سالم فقد كانت أحلامه في وادٍ آخر بعيدٍ عن تدابير أمه وركضها الدؤوب في درابين الشواكة باحثة عن شابة من أجله . لكن .. هل يروق لأله الحرب أن تنعم أمّ سالم بفرحتها التي انتظرَتْها سنين طوال وانتظرتها

معها محلة الشواكة بكل درابينها وأزقتها أبواباً وشبابيك ، محلة الشواكة التي لم تَذُقْ طعم الفرح منذ أمَدٍ بعيد ، منذ أن غرق (صيهود) أبو سالم في نهر دجلة حين علقت إحدى رجليه بشبكة صيد السمك ولم يستطع الأفلات منها فلفظ أنفاسه الأخيرة قرباناً لدجلة الخالد على رأي جدة سالم التي كانت تذكّرنا بقولها المأثور .. دجلة هذا لابد له أن يأخذ في كل صيف قرباناً من أبناء المحلة .. وكان القربان ذلك العام أبو سالم ، صيهود الشعلان . منذ ذلك الحين لم تذق الشواكة طعم الفرح . لم تكن بذلك وحدها بل الكرخ كله وربما الرصافة أيضا تنتظر طعما جديدا للفرح . وهل استطاعت بغداد أن تشهد أو تعيش واحدة من الليالي الألف التي قيل أنها قد عاشتها يوما ما حتى دخلت بسببها موسوعة (غينيس).

بعضُ أحلامه هي التي جعلته يعطف على أمّه ويجاريها في ما ترغب فيه وتخطط له ، لكن حقيقة أحلامه كانت تستبعد فكرة الزواج تماماً لأنها تخبره دوما أن هذا الأتفاق لن يتم ، وإنه أمر فاشل ، كان سالم يخاف على أمه من صدمة الفشل تلك ، لكن صباحاً إشتدت فيه الريح بشكل عاصف بدّد كل رغبات أمه بل وأحلامه أيضا ، حين كشّر إله الحرب مرة أخرى عن أنيابه .. رأى سالم إله الحرب ليلتها بأم عينه فقد رآه لأول مرة بهذه الهيأة متضاحكا بل مقهقهاً ، وتساءل حينها : كيف يتسنى لأله الحرب المُكفهرّ الوجه المزمجر دائما أن يُقهقه أو يتضاحك أو حتى يبتسم ؟ عرف سالم فيما بعد سبب التحول الغريب ذاك في سلوك إله الحرب ، أنه بذلك

كان يعلن عن إنتصاره الكبير في تلك الليلة الحالكة السواد ، وأن نتيجة فتنته الجديدة قد تحولت فيها الدولة الجارة في الجنوب الى المحافظة التاسعة عشرة من محافظات بلاد سومر .

لبيك يا إله الحرب وسعديك لأنك منحتنا القوة كي نقفز مثل قفزات الكنغر فنبتلع الأرضين ونخترق المدن.

في الصباح نفسهِ دُعي سالم صيهود الشعلان وعلى شاشات التلفاز الى خدمة الأحتياط ليرفد ساحة المعركة بمدد جديد ولكي يرضى عنه إله الحرب الذي لم يأبه بنحيب أمه التي راحت من جديد تندب حظها العاثر ، فمن أين جاءتها هذه البلوى الجديدة ؟ كانت تمني نفسها بزواج ولدها وتدعو إله الخير أن يعينها في ما تصبو إليه ، لكن ما باليد حيلة إذ يبدو أن إله الخير هذا أضعف بكثير من ذلك الأله الشرس الذي يضع الكرة الأرضية بين يديه ويأمر الأدريسي أن يثير الزوابع هنا وهناك مستعينا بخارطة البترول التي يوزعها حسب أوامر إله الحرب كي يثير بها الزوابع . ضاربا ألأمتاع والمؤانسة عرض الحائط ، برغم توسلات صديقه أبي حيان التوحيدي ، يُجبر إله الحرب الأدريسي أن يخط بريشته حدوداً جديدة على خرائط البترول كي يثير الزوابع لتكون هدية لأعياد نوروز جديدة .

لم يكن سالم لوحده هذه المرة فقد كان معه صديقه وجاره وإبن محلته الكبرى الشّواكة العظمى ، إنه إبن زريق البغدادي ، المدعو معه الى خدمة

الأحتياط ، أيقظه منذ الصباح الباكر كي يلتحقا معا لتلبية نداء إله الحرب ومجاراة لقفزات الكنغر الكبير .

طوال الطريق وابن زريق يندب حظه العاثر وينوح كنواح أم سالم التي تركها متربعة وسط الحوش في دارهم وهي تلطم وتولول . وها هو إبن زريق هو الآخر ينوح ويولول معها حين تسكت أم سالم يبدأ هو . وهو الآن يكرر المشهد وهما على ظهر سيارة الأيفا العسكرية متجهين الى المحافظة التاسعة عشرة .

لم يكتفِ إله الحرب بسَوْقهم الى الرحى الجديدة في أقصى الجنوب مهرولين خلف الكنغر الكبير بخطواتهم الكنغرية التي لم تستطع اللحاق به لأيقافه عند حده . بل لم يعد بمقدور أحد أن يعيده الى مكانه ، على الرغم من مناشدات إبن زريق وبكائه على فراق حبيبته زوجته التي تركها وحيدة في شواكة بغداد . هذا ما لم يكن يعرفه الآن أحدٌ غير سالم ، فقد نسي أن يذكره لنا ، فأبن زريق الجار الشاب الذي تزوج من فتاة جميلة يغبطه على جمالها كل شباب المحلة ، أحَبّها إبنُ زريق وذاع صيت حبهما في الشواكة والمحلات المجاورة حتى أمست ليلة زفافهما عرسا لكل أهالي المحلات والبيوت المجاورة في تلك الليلة التي سطعت فيها الأنوار كما لم تسطع من قبل فغطت صفحة دجلة .

– هوّن عليك ياابن زريق فلن ينفعك هذا النحيب مادام إله الحرب نشيطاً هذه الأيام وما دمنا بعيدين عن الشواكة منهمكين بترتيب أوضاعنا

في محافظتنا التاسعة عشرة التي جاءت منحة لنا من ربنا إله الحرب دون مقابل إرضاءاً لرغبة الكنغر الذي ما فتيء يتقافز ، أ لم تره أمامك كل يوم هو في شأن . هوّن عليك يا صديقي .. قال سالم ذلك لصديقه إبن زريق الشوّاكي الجنسية والذي ردّ قائلا :-

– ليس الأمر هكذا ياابن شعلان الشوّاكي ، أما ترى أني قد تركت زوجتي وحيدة هناك ، خوفي يا صديقي أن ينقضي نحبي هنا ، كنت أتمنى أن تنجب لي حبيبتي ولدا كي أعطيه اسم جده ، كنت أرغب أن أسميه (إرزيج) على إسم جده زُريق فأنا معجب بزريق هذا ، إنه أبي الذي علمني صناعة شباك صيد السمك ، ودربني على الصيد في دجلة حتى صرت أكثر الصيادين مهارة ورحت أرفد سوق الشواكة بكل صيد ثمين ، أ لست أنت يا سالم جارنا وصديقي الوحيد وتدرك ذلك جيداً ؟.

– أعانك الله يا صديقي ؟ أما أنا فلا أدري إن كنتَ تبكي وتنحب على زوجتك التي تركتها وحيدة أم على ارزيج إبنك الذي لم تنجبه بعد .

بين عشية وضحاها كما يقال هبت عاصفة من صحراء الربع الخالي، لم تكن عاصفة وئيدة ، كانت عاصفة شديدة ، تطاير فيها الى عنان السماء حتى الحديد : الدبابات ، والمدافع ، والملاجئ حتى الطائرات الجاثمة على أرض المحافظة التاسعة عشرة ، وطبعا لابد للأشلاء أن تتطاير أيضا مع كل تلك الأمتعة التي تطايرت والتي جلبها الجنود معهم من أرض سومر ، لم يبق شيء يمس تراب الأرض إلا وابتلعته السماء ، لم يبقَ أمام الجميع

سوى الهرب ، وسالم وابن زريق جزء من هذا الجمع طبعا إن تسنى لهم ذلك ، فالجميع يعودون من حيث أتوا كي ينفذوا بجلودهم ، فقد صبّ إله الحرب جام غضبه على الجميع هذه المرة ، لقد تابَعَهم و لم يترك أحدا منهم مطلقا ، لحق بهم الى طريق الموت ذاك الذي سلكوه مهرولين خلف الكنغر المتقافز (الى الوراء دُرْ) هذه المرة .

عاد الجميع يحملون جراحاتهم ممزقةً أجسادُهم عبر طريق الموت ، حانت من سالم إنتباهة الى صديقه إبن زريق فوجده قد كف عن النحيب على الرغم مما لاقاه في تلك الطريق ، كان مبتهجا ، تذكر سالم حينها ان ابن زريق لابد أن يكون على هذه الحال إذ تداخلته فرحة اللقاء المرتقب بحبيبته ، وهكذا يفعل الحب حتى في زمن الحرب مهما كانت الظروف ، لابد أن يستأنس إله الحب باللحظات الحلوة كي يغيض بها عدوه اللدود إله الحرب ،، أعطيناك الحق أيها الفتى كي يكتمل حلمك اللذيذ .

3

السابعة والنصف صباحاً ، لايزال النهار شاحباً نورُه ، ولا تزال الأعمدة السامقة حاملة النور الأبيض ، تبعث خيوطاً متلألئة ، ولازال سالم صيهود الشعلان يجلس خلف مقود عربة القمامة تلك الشاحنة المتسعة ، يجلس معه في مقصورتها إثنان من الزبّالين ، ويجلس في مقعدها الخلفي إثنان آخران ، زجاج السيارة الأمامي مُبقّعٌ بقطرات الندى الشفيف مرة ، ومرة أخرى معتم بسَيْل المطر الكثيف ، تزيحه ماسحات الزجاج بين الفينة والفينة، بينما يغطي البخارُ الواجهة الداخلية للزجاجة الأمامية .

كان على سالم أن يصل الضاحية المحددة لعمله هذا اليوم قبل الساعة الثامنة والنصف ، أمامه ساعة واحدة منذ أن انطلق بعربة القمامة مع المجموعة العاملة معه من بوابة الشركة ، لكنه بدا خائفاً الآن وهو يقود شاحنته ، مرعوباً بسبب مخالفة مرورية إرتكبها نهار البارحة دون أن يشعر به أحد لأنه قد تداركها في الوقت المناسب ، لكن مصدر خوفه أن تكون هناك كاميرات مرورية قد سجلت مخالفته تلك ، لم يكن سالم قد نفّذ

تعاليم الشركة في أمور السلامة ، مثل فحص المكابح والماسحات الأمامية ، هواء الأطارات ، الأشارات الجانبية وغيرها من أمور السلامة ، لم يفعل ، إختبر المنبه فقط ثم انطلق مثل طفل استهوته لعبةٌ أسعدته ، راح يقود شاحنة القُمامة تلك مقلداً سائقي ذاك النوع من السيارات في بلده ، تلك المكتوب على أحد جانبيها (حافظ على نظافة عاصمتك) وعلى الجانب الآخر (من أجل بغداد أجمل) .. ياه ، بغداد ! وضغط على المكابح بقوة، نظر يميناً ثم شمالاً بعد أن توقفت سيارته لكنه لم يجد أثراً لنخلة في الجوار ، هذه ليست بغداد . ليس سوى عمارات شاهقة وشوارع عريضة ، وليس سوى السيارات التي تمرق بسرعة البرق بعد أن يشتمه بعض سائقيها لفرط تهوّره في الوقوف المفاجيء ، صاح أحد الجالسين بقربه .. إحذر البوليس ! أسرع قبل وصولهم .. فانطلَق وهو يسمع صفارة سيارتهم الهادرة ، إنعطف الى اليمين حيث الطريق الفرعية ليس خوفاً منهم فحسب لكن هذه الطريق هي التي تؤدي الى الضاحية التي يقصد العمل فيها هذا اليوم ، حسب تعليمات الشركة التي استلم سالم عمله الجديد فيها قبل أيام ، تبين له حينها أن سيارة الشرطة تلك كانت تطارد سيارة أخرى صغيرة ، حمد الله فقد تخلص من رعب ملاحقة سيارة الشرطة تلك التي استمرت في الأنطلاق مع امتداد الشارع الرئيس .

عاد سالم الى القيادة مستأنفاً السير بشكل نظامي مُتعقلٍ تُجاه الهدف ، تلك الضاحية التي يدخُلها الآن مع مجموعة العمال الذين معه في سيارة

جَمْع القمامة التي يقودها ، هذه الضاحية لم يكن قد رآها من قبل ، كلفته شركة التنظيف للعمل فيها لأول مرة . يبدو أنها أكبر ضاحية من ضواحي المدينة وأكثرها سكاناً ، مع وجود نسبة كبيرة فيها من المهاجرين العرب ، إستقى هذه المعلومات من منشور الشركة التوضيحي حين استلم العمل فيها ، مَنْ معه من العمال يعرفونها جيداً ، بعضهم من سكنتها يشيرون عليه حين تتنقل عيناه في اتجاهات مختلفة ، إجتاز الشارع رقم 18 ، شارع لنكولن ، حسب العنوان الذي معه ، وهو غاطس خلف مقود السيارة فكّر حينها أنّ عليه الآن كي يصل الى بداية الضاحية المطلوبة أن يقود بانتباه شديد بسبب زحمة السيارات وكثرة المارة لكونها ضاحية سكنية ، أيُّ خطأ يرتكبه قد يؤدي به الى السجن أو الغرامة وربما كليهما . وقد تكون العقوبة فقدانه لعمله هذا الذي لم يحصل عليه إلا بشقّ الأنفس ، لولا رسالة حصل عليها من أحد الأمريكان من أصل عراقي يعمل في الشركة نفسها ، بمثابة تزكية له .

لم يكن سالم يغطس خلف مقود سيارته الآن عبثاً ، السبب واضح بالنسبة له على الأقل وهو شعوره بأن الحقيقة هنا خافية تماماً ، أو قد تكون صعبة المنال ، حتى إنه ليعتقد أن الحقيقة هنا تنكمش الى الحد الذي يُفقده كل أحلامه تلك التي كانت تحمل عبء أيامه على الأقل بل إنه قد افتقد حتى وجود الآلهة التي عرف الأدريسي نفسه أثرها وراح يجاملها في رسم خرائطه كيفما اتفقوا هم .

أحلامه الناصعة منها والمعتمة قد تعطلت هنا ، بل أصابها العطب ، فلا وجود لأله الخير ولا تأثير لأله الحرب في هذه البقعة من العالم الذي لم يكتشفه الأدريسي نفسه و لم يضعه في خرائطه على الرغم من علمه الواسع في جغرافيا الأرض إذ يبدو أنه وبكل بساطة لم يتصور وجود عالم آخر يقع في الجانب الثاني من الكرة الأرضية ، هذا إن كان يعرف أن الأرض كروية وليست مسطحة وقد لا تكون مأهولة لأن الآلهة لم تخبره بذلك ، ولأن ذلك في نظر الآلهة عالم تغرب عنده الشمس ، لذلك كله لم يتكيف سالم مع هذا العالم الجديد تماما بالنسبة له لحد الآن ، خصوصا الشعور الذي أصابه بالأحباط الشديد ذلك أنه قد فقد صديقه إبنَ زريق ، لا يدري ما الذي حل به ، هو يذكر تماما أن إبن زريق قد انتقل معه الى هذه البلاد فقد ركبا الطائرة معا منتقلين جوا الى هذا البلد ، لكن هذه البلاد تمثل عالماً شاسعاً، أين ؟، بل كيف يتسنى له أن يجد صديقه ؟ وهو نفسه ضائع في هذا الخضم ، عالق في دنيا بعيدة لا ناقة له فيها ولا جَمَل ، لا شِباك الصيد ولا دجلة الخير ولا شواكته التي افتقد عفونة السمك في أسواقها ورطوبة جدران درابينها وانحناءة أبوابها والشبابيك وشناشيلها ، ظلت تلك لذائذ تترسخ في وجدانه الى اليوم .

بقي متوتراً طوال مروره في هذا الشارع المزدحم ، لاحظ بما لا يقبل الشك وهو يرقب حركاته أنه كان قلقاً منذ بداية هذا الصباح بل مذ خرج من سكنه المتواضع في أطراف هذا الحي وهو مُمْسِك بحقيبته الجلدية

اليدوية بقوة تلك التي احتوت على بطاقته الشخصية الأمريكية طبعاً ، وقد دَسَّ فيها بضعَ كعكاتٍ صغيراتٍ ومبلغاً بسيطاً من النقود . فهو منذ صباح هذا اليوم بدا نشيطاً متجهاً نحو غرفة الخِزانات الخاصة بالعمال التي بدت له أكثر كآبة من عربات القمامة أو حاويات القمامة التي يراها يوميا تملأ باحة الشركة وهو في طريقه الى مدخل المرآب ، في الغرفة الكبيرة التي هي بمثابة مكتب توزيع الأعمال على العاملين ، راح يحاور رجلا لاحظ أنه طويل القامة بعض الشيء بلحية خفيفة يخط شعرها القليل من الشيب ، يرتدي بنطالاً قصيراً شديدَ القذارة ، تعلو رأسه قبعة قبطان بحري عليها تمثال صغير لمرساة ذهبية اللون ، عيناه بعتمة مياه الشواطي لكنهما مألوفتان على نحو واضح ، شعر بأن هذا الرجل قد أدرك بأنه عامل جديد في هذه الشركة وربما في هذه المدينة بالذات ، نصحه الرجل أن يضع هويته على الطاولة كما فعل بقية العمال العاملين هنا .

الكنّاسُون الذين سيعملون مع سالم اليوم ، أي زملاؤه في العمل بمثابة مجموعته الخاصة يصلون تباعاً الآن ، بعد لحظاتٍ دخل الغرفة شابٌّ متين القامة ، أخذ يُخرج من الخزانة الكبيرة بعض الحاجيات وبعض الجزم المطاطية البيض وزعها على الجميع وارتدى هو نفسه واحدة منها . ثم راح يزعق بالجميع كي يسرعوا .

الحقيقة هي أن سالماً قد عمل في هذه المدينة في مهن عدة على مدى السنوات الطويلة التي مضت منذ أن جيء به الى هذه البلاد واكتسب صفة

لاجيء ثم مُنح ما يُعرف بـــ(الكرين كارت) الذي أعطاه صفة مواطن أمريكي من الدرجة الثانية ، في الصيف الماضي كان يعمل في أحد مكاتب السفر في المدينة لكن مشاجرة حدثت بينه وبين أحد الموظفين هناك طُرد على إثرها من تلك (الوظيفة النظيفة) وكان يتندر بهذه مع أصدقائه أحيانا . إضطُرّ بعد هذه الحادثة الى أن يغير مكان سكنه فانتقل الى ضاحية لنكولن هذه في بيت صغير أشبه بالكوخ على أطراف المدينة ، ثم حصل على وظيفته الحالية في بلدية ضاحية لنكولن نفسها.

من خلال هذه المهنة التي لايعرف ما الذي دفعه الى اختيارها ، ولو أن الأختيار لم يكن بأرادته ، كذلك المشاجرة التي حدثت له قد أكسبته طريقة غير متوقعة في النظر الى الناس هنا ، ظنّاً منه أن عقله سوف يغدو خاملا إن هو لم يستطع النظر الى الناس من زاوية جديدة كي يبعد عن ذهنه ذلك التعب المتجذر في أعماق جسده منذ أن قطع طريق الآلام الطويل ، طريق الموت ، بين المحافظة التاسعة عشرة وعاصمة بلاد سومر مشياً على قدميه ، الطريق التي تقطّعتْ فيها السبل حتى على العصافير التي راحت تبحث عن اشجار تحتمي بها من النيران النازلة من السماء ، لهيب الطائرات الأمريكية وطائرات الحلفاء ، أيّ تعبٍ يُفكك أعضاءه الآن وهو يعيش في البلد الذي تكتوي الى الآن أفئدة أهله يوميا بلظى نيرانه ، لا حيلة له سوى أن يغمض عينيه ، فكم مرة نجا من موت محقق ، وها هو الآن يشعر أن وجوده ضمن حشد من الغرباء هنا يخلق لديه قدرا من الأكتئاب،

ولو أنهم في واقع الأمر كانوا لطفاء معه ، لكنه كان دائما يذكّرهم بأنه يرغب بشدة أن يترك بلدهم الغني الحر ويعود الى وطنه برغم فقره ومشاكله ، يعود الى شوّاكته وشِباك صيد السمك في دجلة الآن وليس غداً، راح يتظاهر هنا أمام الجميع بشيء من الوطنية ، حدثهم كثيرا عن بلده ، كان متشدقاً أقنعهم بأنه يحبه حبا جمّا ، (أنا أحب بلدي أكثر مما أحب صديقي إبن زريق الذي أكن له بمدائن حب).

دخلتْ موظفة المكتب التي وزعت المهام على العمال المكلفين بالتنظيف وهم مجموعة سالم لهذا اليوم ثم أعطت الرجل البدين الذي يحمل الملف ورقةً قالت أن فيها أسماء من يكنسون ، ثم ناولتهم سترات برتقالية اللون و لم تعط سالماً واحدة كالتي وزعتها عليهم .

إستدار سالم نحو خزانته الخاصة ، فتحها ، أخرج منها حقيبته الصغيرة التي استقر فيها القليل من النقود وبعض كعكاتٍ ثم أعاد اليها بطاقته الشخصية التي طُلب منه أن يضعها على الطاولة قبل قليل . خرج الجميع نحو باحة عجلات جمع ونقل القمامة إتجه بعدها الى سيارة نقل القمامة المخصصة له ، شغل محركها بينما راح العمال يضعون في خلفيتها المكانس والمجارف وأكياس جمع القمامة ، ثم انطلق بالجميع في طريق يشبه طريق الآلام ذاك بالنسبة له على الأقل .

ها هو يستمتع الآن بذلك السير المتمهل أكثر من الأستمتاع بأنه أدرك تماماً ماهو مطلوب منه في عمله هذا ، تجاوز مباني مختلفة في ذلك الشارع

الفرعي في تلك الضاحية السكنية المليئة بالحركة والناس حتى وصل الى مدخل شارع آخر أكثر ضيقا لكنه طويل جدا يمتليء بمحلات وأكشاك تحمل بضائع مختلفة ذكّرته بسوق المحله في بلده لكن الفرق كبير بين سوق شواكته وهذا السوق ، لم يسمع أحدا هنا ينادي على بضاعته وهو الذي أحبّ كثيرا ذلك الضجيج اللذيذ في الأسواق هناك ، وقد سئم منظر البضائع هنا وهو يراها من خلف واجهات زجاجية نظيفة لكنه قد اعتاد على هذه الحالة منذ أن وطئتْ قدماه أرض هذه البلاد .

ما زال سالم يجلس الآن في سيارة جمع القمامة ولا زال خلف مقودها ينتظر أن يُنزل العمال معداتهم منها ثم ينطلقون هم كل الى عمله في هذا الشارع نفسه الذي توقفت السيارة فيه كان عليه هو والسيارة أن يلبثوا هنا في هذا المكان لساعات معدودة ريثما يجمع العمال أكياس القمامة من المحلات والبيوت ويقرّبونها عند الأرصفة حينذاك تأتيه الأشارة منهم باكتمال عملهم فينطلق بسيارته بينما يقوم العمال برمي أكياس القمامة داخلها أثناء سيرها البطيء ، كان لزاما عليه أن يقضي ساعات الفراغ تلك بالقيام بأي عمل كي يملأ ذلك الفراغ الكبير الذي لابد أن سوف يعطيه فرصة الأطلاع على بعض واجهات المحال التجارية في ذلك الشارع التجاري الممتد طويلا كما يبدو ، حينها لمح في منتصف الشارع تقريبا محلاً كبيراً أثار انتباهه ، إذ أمعن النظر الى واجهته فوجد أنه عبارة عن فرن واسع للخبز وبعض المعجنات كما ظهر من خلال واجهته الزجاجية ، لكن

الذي أثار انتباهه وحفز فضوله وجود يافطة كبيرة على اتساع واجهة المحل مكتوب عليها بحروف عربية مبينة عبارة (فرن الخبز اللبناني) وتحتها بحروف أقل حجما عبارة (بأدارة الخباز الشهير علي اشعيتو) أما الترجمة الأنكليزية فقد كانت واضحة ومشرقة .

فكّر أنْ لابد في هذه الضاحية الكثير من السكان العرب أو الذين هم من أصول عربية ، وعلى وجه التحديد من المهاجرين العرب ، وإلا لمن ينتج هذا الفرن الكبير هذا النوع من الخبز العربي الذي يشبه نوعا ما الخبز الذي تنتجه أفران بلاده . كل ذلك أثار فضوله ، حفزه وهو لا يزال يغذ السير متمهلا يتطلع الى واجهات المحال في هذا الشارع ، صار متلهفا ليعبر الى الجانب الآخر من الشارع باتجاه ذلك الفرن كي يشبع ما يثير فضوله عن قرب ، وبعد أن تأكد بأن عماله قد بدأوا العمل توّاً وأنهم يحتاجون الى وقت طويل لأنهائه وأن عجلة القمامة متوقفة تماما في المكان المخصص لها ، وهو على علم أن لديه الوقت الكافي في التجوال هنا ريثما يجمع العمالُ خلاله أكياس القمامة من المحال والعمارات السكنية في ذلك الشارع الطويل نسبياً ثم يركنونها على الأرصفة بانتظار سيارته التي سوف تدور لجمع تلك الأكياس ، كانت فرصة سيغتنمها كي يستجيب لدافع فضوله ويتعرف على ذلك الفرن الذي أثار انتباهه من خلال لافتته الكبيرة تلك . فكّر أنْ لابد أنْ يلتقي بمن يعمل فيه من الذين لابد أنهم من العرب المقيمين

في هذه الضاحية ، عبر الشارع ، أدهشه البائعُ الجالس أمام محصلة النقود في الواجهة الأمامية للمحل ، أقصد الواجهة الزجاجية للفرن .

فتاة شابة ، تلك هي البائعة الجالسة أمام محصلة النقود ، يتجاوز عمرها العشرين بقليل ، من القراءة الأولى لبشرتها وتقاسيم وجهها أنها كانت حنطية اللون ، قالت له القراءة المذهلة بأنها عربية الجلد والمحتد ، تراجع قليلا الى الخلف ليعطي المجال للزبائن الذين يتوافدون زرافات ووحدانا لشراء الخبز وانتظر خلو المكان إلا منه .، منح الفتاة ابتسامة خفيفة وهو يحييها بلغة عربية فصحى لا غبار عليها ، نهضتْ من مكانها ، مدت يدها بالتحية المباشرة وهي تطلب منه الدخول بعد أن فتحت الباب الزجاجية تخلصا من البرد القارص في الشارع على حد قولها ، وهي تضيف بصوت رقيق .. تمتع بدفء الفرن .. ثم أعدّت له كرسيا الى جانبها وباشرته حال جلوسه قائلة : أنت أردني ؟ أو فلسطيني ؟ فأجاب على الفور .. عراقي ! .. حينذاك فغرت فاها ، تبادر الى ذهنها أنه قد دخل الى هذا البلد حديثاً ، فبادرته : معقول ، عراقي في أمريكا؟ كيف وصلت الى هنا في هذه الظروف ؟ أقصد وصولك الى هذا البلد الذي تقاتل أساطيله وطائراته بلدك ولا زالت ؟ .. أجابها بكل برود .. سوف تعلمين كل شيء إذا سنحت الفرصة . أما الآن فأنا أستطيع أن أخبرك فقط بأنني لستُ مهاجرا .. هكذا أجابها وأضاف ..(لم تسنح لي فرصة الهجرة الحرة ، أي لم أكن مهاجرا بأرادتي ' لقد كانت مفروضة علي ، لستُ الوحيد الذي

وقعتُ في هذه المصيدة ، المئات بل الألوف من أبناء جلدتي حملتهم الطائرات من الصحراء هناك ورمتهم في مخيمات هيأها لهم في صحراء الحجاز ، ثم أخذ الأمريكان وغيرهم ينتقون الشباب منهم وينقلونهم الى بلدان مختلفة في الغرب وكنت من حصة بلدكم أمريكا هذه ، وبالطبع لست الوحيد فقد حملت الطائرات العديد منا الى هنا ، حدث هذا قبل سنوات عديدة من الآن فأنا لست حديث عهد بالمكان كما تتصورين يا عزيزتي !)

كم كان سعيدا وهو يشرح للفتاة ظروف انتقاله من بلده الى هنا .. إذ بعد أن تفضل إله الحرب وأغرى الكنغر كي يتقافز مرة أخرى منطلقا هذه المرة نحو الجنوب في ليلة حالكة السواد وأن يقضم بلدا قال إنه المحافظة التاسعة عشرة ، كانت النتيجة أن وقع الفأس على رأس سالم وعلى رؤوس أمثاله حتى إنه قد فقد والدته التي ماتت كمداً وهي تبحث عن الزوجة المرتقبة لإبنها فلم تفلح ، وبعد أن هاجر وتركها دون رجعة . كما أنه الآن يتذكر دوما لوعة فراقه لصديقه الحميم إبن زريق الذي لا يدري الى الآن ماذا حل به بعد وصولهما الى هنا ، يذكر بلوعة كيف كانا صديقين حميمين يتباريان أيهما تصطاد شبكته الكمية الأكبر من أسماك دجلة .. بفقدانه لأمه وصديقه إفتقد الشواكة التي حين يذكرها يلتاع قلبه فيذكر الكرخ التي فقدها بل بغداد كلها والأدهى من ذلك حين يشعر أنه قد فقد بلاده بأكملها .

الغالب من الشباب ممن كانوا معه من الذين استهوتهم لعبة ركوب تلك الطائرات تخلصا من المصير الذي قد ينتظرهم اذا ما بقوا على أرض بلادهم التي راح يتلاعب بمصائرها إله الحرب المجنون يساعده في ذلك الأدريسي المغلوب على أمره والذي تورط حين رسم خارطته المشؤومة ، كلاهما كانا يدفعان الكنغر الى أن يستقوي بقفزاته في محاولاته الفاشلة الى ان يقضم ما يستطيع من أراضٍ يضعها في جعبته مستفيداً من خارطة الأدريسي التي نسي أن يضع عليها حدوداً لبلدان بائسة متجاورة . معظم أولئك الشباب هم من الجنود الهاربين من الجيش بعد الهزيمة وأغلبهم من الناجين من طريق الموت . البعض الآخر من المدنيين الذين انتفضوا على الكنغر فهربوا خوفا من بطشه بعد أن فهموا لعبة إله الحرب معه فارتموا في أحضان تلك الطائرات التي نقلتهم في اتجاهات مختلفة أفرادا وعوائل .

إلتفتت فتاة الفرن إليه والدهشة تعلو معالم وجهها الذي اكتسى بحمرة خفيفة فأعطى لونا قرمزياً غريباً ، حاول سالم أن يعطي تبريرا لكل ما قاله على عجالة ، مع لهفتها لمعرفة المزيد فقد طلب منها أن لا تعجل وعليها التريث وطمأنها بأنها سوف تسمع المزيد من العجب في الأيام القادمة مما لم تسمعه أو تراه حتى في كوابيس منامها ، ذكّرها بأنه سيحدثها طويلا عن الكثير الممل من المعاناة التي نزلت كالمطر المنهمر على رؤوس أهل سومر البلد الأغرب في كل ما يحدث فيه من عجائب الدهر .

لم تكن الطريق الطويلة التي عُرِفتْ بطريق الموت هي الطريق الوحيدة التي قطعها سالم وأمثاله فكانت عنوان شقائهم ، فالطرق التي كثرت وتشعبت وتفرعت لم يسلم السائرون فيها هرباً من خيال الموت فقد امتلأت رؤوسهم بعقارب وكلابٍ وأفاعٍ ورعب ولعنة ، كم مرة تعثرت قدماه وهو يهرول مفزوعا في تلك الطريق المظلمة يتعثر بجثث البشر ممن سبقوه في تلك الطريق فسقط على وجهه ليرتطم بجثث أخرى ، في هذه الحال فكر طويلا في شكل تلك الشياطين التي رسمت هذه الطريق التي تفحمت فيها الأجساد من أبناء جلدته ، وكم من القساوة التي احتاجتها تلك الشياطين كي تفعل فعلتها تلك . أما هو فقد رأى المأساة رأي العين ، بشرٌ ، تاهوا في الصحراء لكن الموت الصحراوي كان لهم بالمرصاد والبعض التجأ الى سيارات الأيفا العسكرية لكن طيور الأبابيل أمطرتهم بوابلها المميت ، راحت تقذف بالحمم على رؤوسهم ليتطايروا لحوما متفحمة وكتلة الحديد التي كانت تحملهم تحولت الى جهنم حمراء إضافة الى قذائف راحت تطال من يهرب منهم .

الأغرب من ذلك أن الكثير منهم قد جلسوا على حافات الأسفلت متدثرين بمعاطف أو بطانيات هي كل ما تبقى لديهم من متاع ، وهم يلعقون جراحهم أو ينتظرون الطير الأبابيل كي تخلصهم مما هم فيه من محن الموت الذي باتوا يرونه بأم أعينهم في كل لحظة ، الأرض قد امتلأت هنا بأشباح البشر ، حين جن الليل امتلأت السماء بالمقاتلات الحربية القادمة

من مياه الخليج لتوزيع الرعب فوق الرؤوس وتمطر قنابل الموت بوابل منها في منظر رهيب تحرق فيه كل شيء فيتحول الى رماد ، فكر أنّ هذه الجموع من البائسين الهاربين نحو بلادهم هاربون من الموت الى الموت ، تدفعهم الحقيقة التي لامهرب منها : أن الحياة صارت هي الأستثناء والموت هو الواقع المحقق لأنه الحقيقة الماثلة أمام العين .

شعر الجميع بأنهم قد حوصروا من قبل جيوش التحالف ، حين راحت الطائرات تلتقط كل هدف متحرك على الأرض ، خصوصا اذا كان الهدف عجلة من ناقلات الجنود فذلك صيد ثمين ، راحت الطائرات تتصيد تلك العجلات حتى أحالت القنابل الساقطة عليها والنيران المشتعلة فيها الليل البهيم الى نهار على امتداد طريق الموت ، تنقذف الجثث المحترقة فيه من تلك العجلات التي باتت أبدانها وقودا لنيران ملتهبة لم ينجُ منها الا القليل من الذين استطاعوا الهرب الى بطون الصحراء ، حتى هؤلاء الهاربون الذين كان سالم نفسه واحدا منهم لحقتْ بهم بعض تلك الأجزاء المتطايرة من العجلات المحترقة أو الجثث الملتهبة المنقذفة بعيدا لتحيل البعض من أولئك الهاربين الى جثث أخرى تفحمت في مكانها على رمال الصحراء تلك . سأل سالم نفسه حينها : هل يعقل بأن سوف ينجو هو من هذا الجحيم ؟

بهذه لطريقة في الوصف شرح سالم بعضا من تفاصيل ذلك الجحيم لها .. أقصد لفاتنة الفرن .. ليأتي بعد ذلك التفصيل الممل لبعض أحداث ملحمة الألياذة تلك .. حدث ذلك أثناء تتابع الأيام وكثرة اللقاءات فقد

استهوتها اللعبة فراحت ترغب بالمزيد ، تنتظره يوميا ترقب الطريق بلهفة عينيها اللتين تعبران الشارع أمام الفرن كل لحظة تترصد وصوله وهو يقود السيارة المعهودة تلك كل صباح ، سيارة القمامةهذه صارت عنوانه في تلك المحلة الأكثر هدوءا في المدينة ، وفتاة الفرن أضحت قبلته فهو المدعو سالم صيهود الشعلان والملقب في شواكتهم بـــ (سويلم) على هذه الأرض الغريبة وهي تجلس في واجهة الفرن خلف محصلة النقود في ذلك الفرن الذي يغذي الناس في ضاحية لنكولن النائية على أطراف المدينة بالخبز اللبناني الشهي قريب الشبه بخبز تنور فاطمة .

4

اليوم .. يركن سالم عجلة نقل القمامة أمام فرن الخبز ، يتناول الكنّاسون معداتهم ويذهب كل الى عمله بينما يعبر هو الشارع باتجاه الفرن، تستقبله هي بابتسامتها العريضة مرحّبة كأنها كانت تنتظر قدومه ، فقد باتت تفتقده حين يتأخر عن المجيء في أغلب الأحيان .

إستهوتها حكايات الوجع العراقي ، تطلب منه وهو يجلس عندها قرب محصلة النقود في واجهة الفرن أن يكمل حديثه المتواصل عن ذلك الوجع المر والحكايات التي يسردها لها عن عراقيين أكلتهم الحروب وضيعتهم الهجرة وغيبتهم الأمراض والعلل والسجون. قالت له مرة :

– لو كنتَ قاصاً لأصدرت مجلدات وربما روايات قد تعدل قصص نجيب محفوظ .. لم تكن تدري بأن العراقيين قد سطروا وجعهم اليومي باستمرار في صحف وكتب إمتلأت بها المزابل إذ ليس هنالك من يقرأ .

(سَحاب) .. وهذا هو إسمها الذي قدمت نفسها له به أول مرة فأجابها حينها متضاحكا .. إذاً أنت السبب في كل هذه الأمطار التي تهطل على أديم هذه المدينة فالسحاب هنا .

صار كل منهما يرتاح لوجود الآخر ، يبحث عن طريقة للتلاقي حتى أخذا يخرجان معا لتناول وجبة غداء أوحضور حفلة أو ارتياد نادٍ ، الى أن جاء اليوم الذي طلبت منه فيه أن يعمل معها في الفرن وفي الوجبة المسائية بعد انتهاء دوامه في الشركة ، رحب بالفكرة ووجد أنها قد تزيد في دخله أولاً والمهم أنها سَتقرّبُه أكثر من سحاب وذلك هو المطلوب فعلاً .

حصة الرقص انتهت الآن في النادي الذي إرتدياهُ هذا المساء ، توقف الطبل عن النداء وعاد الراقصون الى أماكنهم ، بينما كان المذيع يقدم وصلة الساحر الذي تَقَدّمَ الى الساحة مهرولاً وبدأ في الحال ينشر مناديله وهو يُخرج من جيبه أعداداً من طيور الحمائم ينشرها متطايرة في جو المكان الذي راحت تنبعث منه تلك الموسيقى الهادئة التي تنسجم مع حركات الساحر والتي أدخلت البهجة الى قلبيهما هو وسحاب في لحظة اكتشفا خلالها أنهما يتبادلان نظراتٍ مسروقةً ، كأنهما لم يكونا مجرد رجل ورفيقته فقد تصور سالم أن منظرهما لا يتعدى كونهما يمتلكان براءة طفلين يلهوان معاً . تفرغ تماماً لما هو فيه الآن فتنازل نهائيا عن حصته في مشاهدة الساحر وأفعاله ، عدّل من جلسته كأنه يريد أن لا يرى مشهداً سواها ، فتبيّنَ له أن سحاباً ترتدي فستاناً بسيطاً سماويّ اللون يصل الى ما فوق الركبة

بقليل، بينما أرتدى هو بدلة سهرة كاملة غامقة اللون تماما كما يفعل غيره من الرجال الأنيقين في هذا المكان ، بصراحة كان الأثنان كلاهما مُشرقَيْن جداً عدا عن ذلك الغبار الفسفوري الذي جعل كل شيء فيهما ألأكثر إشراقا ولمعاناً من غيرهما من رواد هذه القاعة ، عدا ذلك أيضا فأنه ليس هنالك شيء مثير حوله سوى البنت التي يجالسها .. سحاب .. التي تحمل ذلك النوع من الجمال البسيط والتي ما إن تراها حتى تتذكر على الفور أجمل ما قرأتَ من شعر وأجمل ما سمعتَ من موسيقى وكل ما وقفتَ أمامه منبهراً من مشاهد الشروق والغروب أو البحيرات والأنهار ، وجهها لا يشبه إلا صورة أورسماً في كتب الأطفال القصصية ، لو فكرتَ في إسم لها لما وجدتَ غيرَ (سحاب) ، فهي لم تكن سوى تلك الصغيرة التي خرجت لتوّها من أسطورةٍ إغريقية .

رغم قرب سالم منها واستغراقه الكامل في الأهتمام بها في تلك اللحظة وهي تبادله النظرات التي كأنهما يلتقطانها إلتقاطاً ، سألها : كيف ترينني يا سحاب ؟ .. أجابته مُسْهِبَةً : لا أراكَ إلاّ فارساً يمتطي جواداً مُجَنّحاً يطوي السحاب ليختطفَ منه سحابة تُسمّى سحاب ، بينما سحاب تنتظره هناك في شرفة عالية .

صار الواحد منهما قد يكتفي بكلمة واحدة أو همسة أو إشارة ليفهم الآخر كل شيء فيضحك من فوره في سعادة لا مثيل لها ، .

الحكاية تحوك خيوطها الآن في نقطة ليست مجهولة في هذا العالم ، تلك نقطة وصل سالم إليها رغما عن أنفه فاستنشق رغامَها بشهيقٍ لا زفيرَ بعده، لأن ذلك الفرن الذي ينتج الخبز صباحا ومساءاً أخذ ينسج العشق أيضا بين قلبين جمعتهما مصادفة غريبة ، هو الذي أضاع أهله وشوّاكته ، وأميركية من أصل عربي لبناني لا تعرف حتى وطنها الأصلي أو لم تتعرف عليه إذ لم تره في حياتها ولدتْ هنا من أبوين لبنانيين . فتاة الفرن هذه كانت قد أخبرته مرة أن جدّها الأكبر الذي جاء بعائلته الى هذا المكان كان يجمع المحار والخرز ويعمل منهما قلائد ليبيعها الى الهنود الحمر أصحاب هذه البلاد الأصليين ، جدها الذي ذكرت لسالم أن اسمه (شعيتو) تزوج من فتاة لبنانية مهاجرة أيضا هنا في هذا المكان وأنجب منها ولداً سمّاه أحمد وهذا بدوره تزوّج من فتاة لبنانية أيضا فأنجبا (سحاب) .

هذا الأسم الذي يظهر واضحا على اليافطة في واجهة الفرن ، (أحمد شعيتو)، هو نفسه ذلك الرجل المقعد الذي يجلس الآن على كرسي متحرك في زاوية من زوايا الفرن الذي تعودت إبنته الوحيدة ، سحاب ، أن تديره وحيدة أيضا تبيع وتشتري وتتعامل مع الزبائن من خلال محصلة النقود التي تجلس خلفها دوما ، ليس معها سوى سالم صيهود الشعلان المدعو (سويلم) الذي نقلته المصادفة اليها من شواكة بغداد ، يجمع القمامة في سيارة بلدية ضاحية لنكولن في هذه الولاية الأمريكية المتسعة التي لابد أن لها حدوداّ لكن الأدريسي لم يذكرها بحجة أنها تنتمي الى العالم الجديد .

كما ذكر لكم سالم أن عمله الجديد مع سحاب قد جاء إستجابة لرغبتها والحق يقال بأنه قد فرح كثيراً وهو الآن شديد الأنسجام مع هذا العمل ، لكن سحاباً لم تكتفِ بتحقيق رغبتها تلك بل طلبت منه أن يترك عمله في شركة جمع القمامة كي يشترك معها في إدارة فرن الخبز ، قائلة : إن الفرن عمله جيد ومردوده المادي يكفينا معا وهي فرصة لتتخلص أنت من عملك هذا في شركة رفع النفايات وقيادتك لسيارة نقل القمامة .

رحب سالم بالفكرة بقلب نابض بالفرح اللذيذ ، وراح يعمل بصمت مع أزمنة من العمل تمضي ، أحبّها وهي تزداد شغفا وتمتليء عشقاً يزداد إحساسه بذلك كلما اقتربت منه ، حتى بدا له أنه احتفظ لها بمدائن حب لا تُضاهى ، لقد نسيا فعلا ما يدور في العالم من حولهما ، هو بالذات صار يشعر أن أحداً يناديه عن قرب ،، سويلم يا سويلم .. لكنه ليس معلم الأبتدائية بل هو الصوت الأقرب الى قلبه ، صوتُها هي فيُدركُ على الفور أن ذلك ليس سوى صوت هذا الطبل الذي يأبى أن يتركه فقد تحول الآن الى سَرديّةٍ لرجل وجد العمر الذي أضاعه ينبع من جديد مع ندائه الداخلي فيستسلم طائعا في البعد عن كل ما فرضته عليه حياة التشرد والوحدة والبعد عن الوطن والأهل ، أدرك الآن أن قناعاً ظنه على طول المدى أنه وجهه الحقيقي ومضى يمارس حياته وهو يدرك أنه من خلال وجهه الحقيقي هذا يعرف على الفور بأن الطبل لم يقصد أحداً سواه فيشعر بالندم على كل يوم مرّ في حياته دون أن يعشق أو يحب .

هل هي مؤامرة تدبّرها له هذه الليلة ، حين قال لها : هل تعلمين يا سحاب أنني لم أتلقّ في حياتي كلها رسالة غرامية واحدة . . ؟

حدث ذلك وهي تتناول آخر كأس من الشراب ، ومعه كانت الدموع تنهمر من عينيه دونما حرج والطبل الذي رافق سهرتهما هذه الليلة ما زال صداه يفعل في النفوس فعله ، حينها كان يغني على وقعه ويسرد القصص أو يحكي أساطير ما رأى بل حمل نداء القبيلة عالياً بأن إبنها الذي قد تاه في الغابات ها هو الآن قد وقع فريسة للنمور ولا سبيل الى خلاصه .. ولن يعود .

أشعل لفافة التبغ ، الشارع الذي امتلأ بهدير السيارات المارقة جعله يتصور أن الشارع إياه قد تحول الى نهر تتلاطم أمواجه وتحولت السيارات الى قوارب تحمل عشاقاً وتمضي ببطء شديد ، بينما القمر الذي يشع ذهبيا في الضفة المقابلة لا يزال يشعل ألسنة اللهب في عتمة النهر.

العصافير التي تبحث عن أعشاشها قد وجدت أشجارها ، لم تكن تلك سوى أشجار الورد فامتلأ صدر سالم بشذى الزهور حينها استسلم الى خدر لذيذ وهو يكتشف أن شجرة قد نبتت بجواره ومدّت فوق رأسه غصنا يمتليء بالظلال والبراعم ، راح يتساءل .. ما اسمكِ أيتها الشجرة ؟ فأجابت متضاحكة : إسمي سحاب ! .. عاشت الأسامي .. لكن صوت سائق التاكسي فاجأهما بالوصول .. لعنه سالم في سرّه .

لايزال سالم هذه الأيام يمارس رياضة الجري مع مجموعة من شباب العمارة المقابلة لسكنه المتواضع في ذلك الحي البعيد نسبيا عن موقع الفرن ، حيث تسكن سحاب في الشقة التي تقع فوق بناية الفرن مباشرة .

مجموعة الشباب الذين يسكنون في العمارة المقابلة ، كانوا يجبرونه أحيانا على هذه الممارسة إذ يطرقون عليه باب سكنه لينبهوه اليها في الصباح الباكر من كل يوم من أيام عطل الأسبوع ، وما إن يطل بأنفه الى الخارج يتسرب بخارٌ أبيض بارد من بين شفتيه حيث الوقت ما يزال ليلا تقريبا ، بالكاد بدأت العمارات السكنية المحاذية للشارع تبين من بين كتل الضباب . تذكر أن النشرة الجوية في الليلة الماضية قد أعلنت عن طقس ثلجي ولكن لم يتساقط أي شيء بعد .

في كل مكان من هذا الحي تظهر أضواءٌ لأعياد الميلاد وأكاليل الزهور ، وتزين أشجار الميلاد واجهات العمارات ومداخلها فتمنح الحي مظهرا إحتفاليا . تلك كانت الساعة الأولى من النهار ، لم يكن في المكان الا القليل من الناس بينما الريح الجليدية راحت تكتسح حلبة الركض حول البحيرة الأصطناعية الممتدة وسط الحديقة .

فكر حينها بالشتاءات المعتدلة في بلاده حين لم يكن له همّ سوى أن يحمل شبكة صيد السمك الى دجلة حتى في سنوات دراسته الجامعية يفعل ذلك ويأتي بها الى الشاطيء على مقربة من جسر الشهداء ، هناك يلمح صديقه ، جاره الذي يَكُنُّ له بالكثير ، يجد أنه قد سبقه وقد رمى بشبكة

صيده في عمق النهر . وبعد أن يرمي عليه التحية يتجه الى الشواطيء المثالية للصيد التي كان قد دله عليها أبوه في حياته .

تلك مهنتهما التي كانا يمارسانها هو وأبوه شأنهما شأن معظم أهالي محلة الشواكة ، إلا أنه مع ذلك لم يترك دراسته بل راح يطوي سنواتها بنجاح متميز حتى وصوله الى المرحلة الجامعية وتخصصه باللغة الأنكليزية ، أما صديقه إبن زريق فقد كان يرافقنه كلما سنحت لهما فرصة صيد السمك حتى تحول الصيد عندهما الى مهنة بعد أن كان هواية وأصبح مصدر رزقهما خصوصا بالنسبة لصديقه إبن زريق الذي كان متزوجا وله أسرة يحتاج الى أن يقيم أودها ويوفر لها ما تحتاج حتى أنه فضل ترك دراسته على أن يجتهد في عمله ليسعد زوجته التي أحبها حد الجنون .

حين يمن الله عليهما من رزقه ، يعود سالم الى أمه وأخيه الصغير حاملا ما يحتاجونه من مؤونة ويعود ابن زريق أيضا حاملا لزوجته ما رزقه الباري كي تفرح بما جناه من رزق فيكسب رضاها.

شعر أن كل ما يفعله الآن طقس مفروض لابد أن يؤديه مجاراة لما وقع فيه بعد وصوله الى هذا المكان الغريب الذي راح يكرس غربته ويثبت دعائمها مرغما ، فلكي يعيش كان لزاما عليه أن يتماشى مع الظرف الذي هو فيه ، وأن يجاري الناس الذين يحيطون به . إنه محيط قاسٍ بالنسبة له.

جلس على العشب الأخضر، بقي جالسا وهو مسكون بذلك الفراغ الشاسع الذي أخذ يُشعره بأن مجيئه الى هذا المكان النائي قد أدخله في فراغٍ

كاد ينهشه من الداخل ، لم يراوده أبداً ، أن الألم سوف يصل به الى هذا الحد ، يصل به الى الشعور بأنه وحيد وبائس . بقي سارحا هكذا حتى دفّأت الدموع عينيه قبل أن تمسَّهُما الريح الصقيعية .

هل تستطيع سحاب أن تنتشله من هذا الشعور الملتهب المجنون ؟ ذلك ما كانا يتمنيانه معاً..

شرب جرعة أخرى من ما معه من الماء حين وجد أن أولى ندف الثلج بدأت تتساقط ، نهض عائدا الى مأواه مسرعا ليتسنى له الأستحمام قبل الذهاب الى عمله .

5

الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن سالماً لم يكن يدري لحد الآن كيف يوازن الزمن المهدور مع وجع العصافير ، فحين انقضى الصيف وانحسرت أمواج السياح ، خفّتْ زحمة مبيعات الخبز ، وقلّتْ طلباتُ أسواق السوبر ماركت ، مكّنه ذلك الى أن يعود الى ذات الصالة الصغيرة التي إعتاد أن يقضي بعض ساعات الفراغ فيها لقربها من محل عمله ، ولكي يكون قريبا من سحاب فقد تحتاجه في شأن من شؤون الفرن .

مع كثرة إرتياده لهذه الصالة بقي سالم ذلك الزائر الغريب ، يجلس دون حراك أمام تمثالٍ يقول عنه أنه يشبهه تقريبا يتربع التمثال على قاعدة مشوية بالنار وسط الصالة ، أما هو ، سالم صيهود الشعلان ، فهو ذلك المشويّ من النار والزمن ببشرة وجهه الملوّحة بالشمس ، هل هو مسحورٌ ؟ هكذا يسائلُ نفسه بعفوية مرات متعددة ثم يقنعها بأن كل شيء على ما يرام حين يجدُ أنّ لسان حاله يقول :

-(أنا الآن أشعر بالتعب فقط والأحساس بالوحشة والعزلة ، أشعر بكل ما يحيط بي من الكثبان الرملية والبحر وآلاف العصافير النافقة)

بعد كل ذلك يعود فيصَوّبُ ناظريه نحو ذلك الزورق الصغير المركون على الشاطيء المهجور أمام الصالة وقطعٍ عتيقةٍ من شبكةِ صيد ، وسماءٍ رماديةٍ وأشباحٍ بيض فوق الأفق . ثم يعود في الصباح التالي ليتأمل التمثال ذاته ذاك الذي يشبهه حقا .

لم يكن صباحه الآخر الجديد كمثل الصباحات المعتادة حين وقف على عتبة تلك الصالة نفسها يتابع بتأمل التمثال المنحوت أمامه . التمثال ذو اللون المائل الى الأحمرار ، عيناه اللوزيتان المتباعدتان تتألقان في وجهه ذي الأبتسامة فائقة الوصف ، المليئة بالأسرار والحكمة والرقة بينما الأضاءة المخفية في الصالة تُظهر بفنية عالية أطراف التمثال ، أعجبت سالما لعبة الضوء والظل فيها بشكل مثير ، حتى تصور أن ذلك التمثال حيّ من لحم ودم .

في بعض نهاراته خارج الصالة يقوم بتثبيت أعمدةٍ خشبية قرب البحيرة الأصطناعية القريبة من سكنه كي تقفَ عليها العصافير لتغفو فوقها حين يَجِنّ الليل ، إذ كان يفعل ذلك في الشواكة على شاطيء دجلة فقد كانت العصافير تأوي الى الأشجار ليلا لتنام على أغصانها ، أما هنا فلا وجود لأشجار قريبة من شاطيء البحيرة الأصطناعية فتنام بعض العصافير على الأعمدة الخشبية التي يثبتها على الرمل قرب الشاطيء وفي الصباح يجد

بعضها قد تساقط على الرمال أثناء الليل والبعض الآخر مازال يرتعش ، لم يكن بامكانه تعليل سبب هجرة هذه الطيور من جزر بعيدة لتأتي الى هنا فتموت في هذا المكان فوق رمال هذا الشاطيء في الغرب الأمريكي الذي يمثل نهاية العالم .

فجأة نهض من جلسته دون أن يرفع نظره عن التمثال ، محدّثا نفسه :

-(كانوا يدفنونهم أحياءاً عند أعقاب النخيل يُهيلون عليهم التراب بالجرّافات في مقابر المحاويل وصحراء السماوة وبساتين الكوت).

هاجس يجذبه كل ليلة منذ أن هرب سجينان من سجن وحدته العسكرية في قاطع زرباطية فوُضع هو في نفس السجن بدلا عنهما عقوبة له لأنه كان ضمن مسؤوليته الخافرة تلك الليلة ، وقد أشبعوه ضربا حتى الصباح واستمرت الحالة في كل يوم حتى تم إلقاء القبض على الهاربين وأودعوهما السجن .

لم يعد الى جلسته إتكأ على الدرابزين المطل على البحيرة مُحدّقاً مرة أخرى بالطيور التي تساقطت على الرمال .. إنه حقاً مكانٌ مقدسٌ للدفن ، شيءٌ ما يشبه مقابر بلاده ! كان هذا هو ظنه .

خامره شعور بأن العصافير في بلاده أقرب شَبَهاً بهذه الطيور، الفارق الوحيد أن عصافير بلاده تعبد المكان الذي تولد فيه ، لا تهاجر أبداً ، تفضل الموت حتى لو كان ليلا على اطراف النخيل ، لكن أقرب شبه بينهما هو تلك المعاناة التي يتسبب بها الآخرون .

الطيورُ المهاجرة تترك جثثها هنا بعد أن تطير الى الأبد قادمة من الجزر الباردة ذات الصخور القاحلة الى حيث الرمال الناعمة الدافئة ، وحين تشعر بحلول أجلها وبرودة دمها تتوق للدفء وتحاول العبور فتأتي الى هذا المكان في الغرب الأمريكي ، لكنها تموت حين ينالها الصقيع في نهاية الموسم . هذه الطيور وإن لم تكن تشبه طيور بلاده ، لكنها تشبهه هو حين يجد أنه لم يستطع أن يعقد صداقة مع هذا المكان الذي آوى اليه عنوة ، إعتاد أن يصغي الى ضجته هذه ومقارناته مع الطيور المهاجرة ، عقد له الآن هاجسا بأنه قد حان له الأنسحاب من الحياة والأستسلام لصوته الباطن ، بعدما سجل لنفسه تاريخا حربيا مجيدا في حرب الثمان سنوات وحرب الكويت وعاصفة الصحراء والأنتفاضة الشعبانية – بصراحة أكثر فقد وجد سالم بنفسه ذلك في وقت مبكر ولكنهم كانوا قد اعتقلوا روحه مسبقا ولم يكتفوا باعتقال جسده . لهذا لم يكن له في هذا المكان وعدٌ لحياة جديدة فقد جُرّدَ من أروع أحلامه ، جعلوا من أحلامه حروباً ومعتقلاتٍ حتى دخل في روعه أنه في القريب العاجل حين يرغب الأنسان أن يرحل الى القمر سوف لن يجد قمراً يُذكر ، كان يكرر ذلك مع نفسه وابتسامةٌ ساخرة تعلو وجهه وها هو يعيد ذلك الآن بينما ينفض رماد سيكارته على الرمال ، ها هو يفكر أيضا بشيء من السخرية بأنّ في نفسه رغبة شديدة بالأنضمام الى تلك الطيور النافقة حقا لقد استولى عليه شعور بالعزلة على الرغم من وجود سحاب في حياته ، لم يكن يحكم بأن وجهه

كان مكتئبا ونحيلا وأن عينيه قد بَدَتا متعبتين وأن ابتسامته قد بقيتْ ساخرة وهي تعلو وجهه خصوصا حين يتذكر بأنه لم يرسل رسالة الى أحدٍ ولم يراسله أحدٌ منذ ما يقرب من عقد من الزمان ، لقد انقطعتْ صلته بالآخرين حتى صديقه إبن زريق كانت رسائله قد نسيها ، بل صار كمن يسعى الى أن يتخلى فجأة عن حياته .

ظن سالم أن وجوده هنا عبارة عن مصيدة ، فالمدن الغربية دائما مصائد لبسطاء البشر ، كل البيروقراطيين ورجال الشرطة والطفيليين والمنتفعين يتربصون بهؤلاء المساكين من أمثاله ، قد تبدأ المصيدة بالأطباق عليهم عند نقطة انتهاء التعامل مع بوليس المطارات أو الموانيء وعند تسديد رسوم العبور بين البلدان ، ثم تبدأ المعاناة : جدرانٌ ، باحاتُ مصانع ، ورشاتٌ مغلقة ، أبنيةٌ مهملة ، أراضٍ خالية ، بِرَكُ مياهٍ راكدة ، دخان ، غمام ، أوساخ ، مصابيح شاحبة ، قذارة مُنفرة .. كل ذلك وهو بين فكّي تلك المصيدة . إرتطمتْ ذكرى تلك المصيدة في ذهنه الآن حين ارتطم هديرُ عجلاتِ قطارٍ مفاجيء على جسر حديدي ثم تبعه خوار بقرة وروائح روث لا تفسير لوجودها هنا وسط هذه المدينة المتسعة الأنيقة .

لم يعد يعرف ماذا يفعل ، تبيّن له أن ما أُطلقَ عليه : حماقته التي لا تُقهر .. قد غزته مُجدداً ، شيء ما داخل نفسه يرفض الخنوع والأستسلام، قلبه الأحمق لم يتعلم الدرس قط . قوة من خداع الذات نقلته مرغماً من ساحات القتال المزمن في بلاده الى هذا الغرب الأمريكي المتحضر

والمتوحش معاً ، لم تنقله الى حافة العالم هذه فحسب بل نقلته كما هو الآن الى لحظة عظيمة تقود الى نكران الذات في وقت بدت له كل الأشياء ضائعة في نهاية المطاف ، لكنه وجدها .. نعم وجدها :

شابةً جداً ، ويائسةً جداً ، حين رفعتْ عينيها رمقته بثقة كبيرة . كان قد رأى أعداداً جَمّة من العصافير تأتي لتموت فوق تلك الكثبان الرملية ، وكان أمله ولو لمرة واحدة أن يُنقذ واحداً منها ليحتفظ به لنفسه فيحقق له بذلك انتصاراً واحدا على الأقل كي تضيء حينذاك إبتسامة الأمل في وجدانه ، لكن الذي هوّن عليه الأمر أن سحاباً هي التي حققت له أمانيه ، سحابُ تلك التي أضاءتْ بنفسها جوانب الأمل في جوارحه بكل سذاجتها الرومانسية الصادقة ، حين غمرت بتلك الموجة الهاربة الأشدّ قوة ، إنها هبة البحر التي وافته من أماكن نائية . كانت هي الطائر الوحيد الذي استطاع أن يُمسك به في محاولة للأحتفاظ به ، فهم سالم الآن لماذا قد وجد نفسه غارقا في هذه الكثبان الرملية قرب هذا الشاطيء ، ثمة تعليل لوجوده أقنع نفسه به .. هل جيء به الى هنا من أجلها ؟ حين خرجتْ له مثل عروس البحر تدفعها الموجة المتكدسة الهاربة نحو شاطيء يمتليء بحره وسماؤه بضوء منهمر ، صدرها النافر المنحوت يبين من تحت فستانها الناعم البليل ، متناغما مع نظرة عينيها الناعستين وحركة كتفيها ، هاهو العالم الآن يلوح له أكثر رشاقة وخِفّة . شعر بأنه ينتقل الآن الى شاطيء أجمل حين سمعها تخاطبه ،، هل ستتغير يا — سويلم – هل ستتحول الى شيءٍ من شاعرٍ

شيء من حالم ؟ أنت تختلف تماما عن هذا العالم المتوفر هنا ، بل مختلف في كل شيء .. في شكلك وملامحك ولونك وكل علاماتك الفارقة .. إذن ، من أنت ؟

لدهشته لم يحر جوابا فقد أصيب بالعطب النفسي ، لأن براءة السؤال الذي طرحته عليه لأول مرة قد وجده قريبا من نفسه ، وبدلا من أن يجبها بادرها بالقول : كم مرة يا سحاب تخيلتُ انك عراقية تتحدثين معي بلسان قومي . حين أجابته بابتسامة رائقة تلجلجت كل مفردات العربية في صدره منحشرة متراكمة ، حاول أن يُخرج بعضا منها على لسانه وحين وجد أن ليس بمستطاعه ذلك .

إحتضنها ، ضمّها الى صدره كأنه لم يكن يريد أن يفلتها فقد شعر أنها الطائر الوحيد الذي نجح الآن في أن يمسك به ليحتفظ به ، فكر تلك اللحظة ان يحتفظ به لنفسه ما دامت الموجة الهاربة قد وهبت له سحابا ، كم انت كريم ايها البحر.. وكم أنتِ عظيمة يا موجتي الهاربة .

تلك هي القضية إذاً ، حتى الطيور لا تتساقط من السماء بلا سبب ، ظل سالم يُحيطها بذراعيه وهو يسمع الصوت الذي يخترقه مخلصاً ، لكنه لم يكن يصغي تماماً فقد كان التحديق نفسه إصغاءاً سمع من خلاله قدومها والزمن سلاسل تتحطم من حوله ، وهي آتية إليه وهو ما زال يستسلم لذهوله كلما غاص في التذكر في وسط اللحن على الصوت الذي إنبثق غامضاً كالميلاد صغيرا مُفضّضاً رافعاً أمام وجهه هامة من الكبرياء الحافل

بالملامح المتألقة بقوة ، والموج يأتي والصوت يتناثر صانعاً بحيرات نقية على قدر أفواه العصافير الصغيرة المدببة التي أخذته مسحوراً فأحسّ برفيف أجنحتها تصحو وتنطلق صوب الشطآن الخضر ، مثل طائر يعانق ينبوع الصوت في شفتيها حتى كاد أخيرا بعد أن ارتوى بالفرح معها ، و يستقبل الموجات الآتية بالضوء.

6

بداية النهار ، والسماء ما زالت رمادية اللون ، سالم في طريقه الى عمله في الفرن ، مطمئنّاً كان ، فقدأحبّ مهنته الجديدة مثل حبه لسحاب، شَحَنَ هذه الطمأنينة بتلك الحقيقة فأعطته قوة دفع جديدة كي يواصل ، غمرتْ مساماتِ جلده قشعريرةٌ أحسّ خلالها بدمه يتحرر من ثقله وتخثره، يركض كجياد برية لم تمتدّ لها يدُ سائس ، وهو يركض معه عبرَ سهول عريضة ممتدة و يمتصّ رحيق سعادة صافية فيستشعر طعمَها على طرف لسانه ، لكن ذلك لم يدم طويلا.

حين وصل سالمُ الى المحلة وجد الفرن مغلقاً تعلو واجهتَه لافتة تقول بالعربية والأنكليزية : إنتقل الى رحمة الله المرحوم أحمد شعيتو .. لم يُكمل قراءة اللافتة بل صعد مباشرة الى شقة سحاب فوجدها متشحة بالسواد يتحاوطها بعض الأصدقاء وثلة من صديقاتها والجيران في جو صامت مهيب .

القناديل ظلّتْ تمرّ دون غناء ، مع كل ليلة . وهو يسرح لوحده بانتظار القمر الذي يأملُ أن يراه وهو ينهض من خلف هضاب الحزن ويتزل الى الوادي الأخضر الذي شيّداهُ معاً وألِفاهُ معاً .

بعد لأي جاء اليوم الذي نزل فيه القمر من عليائه فرآه في رابعة النهار سليماً مُعافى ، فرح بها وضمّها الى صدره .

عادت سحابُ الى ممارسة عملها في الفرن وعادت اللقاءاتُ الحَميميّة كما كانت لكنهما لم يَعــُودا يخرجان كثيراً ، لم يعودا يرتادان النادي كل يوم فقد كانا يقضيان معظم الوقت بين شقة سحاب والفرن فاختلطتْ لقاءاتهما بالزمن المهدور مع الأيام والشهور . باتت تستقبله في شقتها أثناء العمل إستقبالاً مهذبا ، يحدث ذلك الآن وفي الشهور الأولى بعد وفاة والدها .

كل يوم من أيام سعده هذه يسرح في شقتها بكامل حريته دون رقيب بعد أن ذهب الرقيب وغيّبه الزمن . في إحدى المرات أثناء وجوده في شقتها أثارت انتباهه منحوتة صغيرة متميزة عن بعض محتويات الشقة ، سألها وهي جالسة تتناول إفطارها . سألها عن الفنان الذي نحت ذلك النصب الصغير ، ولدهشته أجابت بأنها هي التي أبدعت تلك المنحوتة الصغيرة ، لم يكن يخطر بباله أنّ سحاباً فنانة تمارس النحت بهذه الطريقة الرائعة في شقتها ، أرَته مَشْغلها الذي أدهشه هو الآخر في معروضاتها فوجد أن صاحبته فنانة يبدو أنّ عالمها يقوم على الأحلام والأطياف

والعاطفة والرقة ، تأكد له الآن بأنها محترفة لتجربة عميقة أخبرتْه حينذاك بأنها قد أقامت معارض عدة في مدينتها هذه وأرته بعض صور لتلك المعارض. كانت تتحرك برشاقة خلال ذلك بين رفوف تماثيلها ومع حركتها راحت تتحرك تلك الأعينُ والشفاهُ المرسومةُ على تنّورَها الطويلة بعض الشيء ، أعينٌ بُنيّة وشفاهٌ حمر ، هناك إنتقلتْ عيناه الى عينيها هي ولأول مرة وجد نفسه يكتشف أن عينيها كانتا لوزيّتين وأن شفتيها قرمزيّتان ، ما الذي يحدث إذن لو عانقها وسط هذا العرض البَهيج ؟ كان يعرف مسبقاً بأنه أجبن من أن يفعلها !

من إحدى مقتنياتها هذه أعطته هدية كانت عبارة عن طائر له رقبة رشيقة إستقر فوقها رأسٌ صغيرٌ حادُّ الحَوافّ فيه عينانِ صغيرتان بشريّتان ، قالت : أنت تحبّ العصافير! ..

عاد سالمُ الى الصالة في الشقة وعادت هي تحمل كأسين من النبيذ إرتشفاهما معاً ، حدثته عن معرضها المقبل وعن أسفارها قبل أن يُصاب أبوها بالشلل فقد كانت ترافقه في سفراته المتكررة حدثته عن أبعد مكان زارته في كمبوديا وعن أناسها البريئين ، حدثته عن أسفار متعددة ومغامرات لها في دول أمريكا اللاتينية خصوصاً ، قالت :

– أنا أحب السفر كثيرا لأن السفر يحرر الناس من إحساسهم بالذنب ، ذلك الذنب الذي يقوم على ثقافتنا نحن الشرقيين المسلمين خصوصاً القائمة

على الشعور بالأغراق في الخطيئة وبالتالي الشعور بألم الأحساس الميتافيزيقي بالذنب .

قاطعها مُضيفاً في نفس السياق :

ــ صحيح .. فالشعور بالخطيئة هي لعنتنا لأنها تحرمنا من الحرية وتقف حاجزا بين الشخص وغيره ، أو بتعبير أدق بين الناس والله .. وعلى ذكر السفر استغل الفرصة ليطرح عليها السؤال الذي يدور في خلده دوماً :

ــ هل قمتِ أنتِ بزيارة بلدك لبنان ؟

عندها سَحَبَتْ نَفَساً طويلاً ثم أجابت :

ــ لا أدري لماذا لم أزر أي بلد عربي فضلا عن بلدي ، لا زلتُ أبحث عن سبب ولا زلتُ أرغبُ بزيارةٍ من هذا القبيل .

بدأتْ ظلال المساء تزحف نحو الشقة ، رأى سالمُ أن ما بقي من ضوء النهار صار مركّزا على جبهتِها المرتفعة بعض الشيء وهي تحدثه عن غرائبَ لم يسمع بها منها قبلاً أدهشته ووضعته أمام امرأة لم تعد مجرد فتاة تبيع الخبز في فرن والدها جالسة خلف محصلة النقود المحصورة خلف الواجهة الزجاجية المطلة على ذلك الشارع الضيق في حارة لنكولن في هذه المدينة المتسعة ، ها هو الآن أمام امرأة فنانة أنيقة ومثقفة بارعة ومغامرة مليئة بالأسرار والألغاز ، لذا فقد شعر آنئذ بأن ضوء النهار لم يمت أو يتلاشى ، فقد أحس أنه ينبثق منها كشعلة لا شك أنها تتقد داخلها ، تلك الشعلة التي راحت تمتد نحوه فتحيطه بأنفاسها الدافئة .

أحد أيام الأجازات أخبرته سحاب أنها تروم الذهاب الى مركز المدينة لتشارك في احتفالية كبرى كما وصفتها لأفتتاح إحدى العمارات من تلك التي يسمونها ناطحات السحاب طلبت منه أن يرافقها الى هناك ليرى إحدى العجائب كما وصفتها . رافقها فعلاً نزولاً عند رغبتها وبذلك بعد فترة قصيرة من الزمن نسبياً وجدا أنهما أمام أعلى ناطحة سحاب في العالم ، وقد إنضمّ كلاهما الى ذلك الجمهور الكبير الذي حضر من كل أرجاء البلاد للمشاركة في هذا الحدث الأستثنائي فقد كان لهذا البرج قاعدة ضخمة وهو بناء فيه مزيج من الأناقة والقوة ، لابد أن يندهش من يتطلع اليه عن قرب ، حين رفع سالم بصره الى الأعلى شاهد طوابقه العليا تشع بالأحمر والأخضر من الأنوار التي انتشرت في سماء المكان في منظر مهيب ، فاتجه الى سحاب يسألها :

– هل أنت راغبة فعلا في أن نصعد الى الأعلى هناك ؟

– نعم ، فقد اشتريت بطاقتين لكلينا ، وها أنت مدين لي بست دولارات !.

تضاحكا معاً ثم هزّ سالم رأسه مستسلماً .

في بهو مدخل العمارة كانت ساعة حائطٍ ضخمة تشير الى التاسعة والنصف صباحاً وثمة لوحة إعلانية ضوئية تشير الى أن بيع بطاقات الدخول سيستمر لساعة أخرى .. حقا إنه صرح مذهل يستحق المشاهدة ومتعة النظر اليه . قال سالم ذلك وهو يُبدي إعجابه لسحاب مع ازدياد إعجابه

بكثرة الناس الذين يحتشدون بالقرب من موقع استقبال الزبائن لشراء بطاقات الدخول تلك ، صالة الأستقبال في مدخل العمارة كانت مزينة أيضا بصور لجوانب من العمارة نفسها ، وفي الجهة المقابلة لوحظ وجود عدة أبواب مرقمة للمصاعد الكهربائية قد كثر الناس الداخلون اليها والخارجون منها . مرت دقائق معدودات أقلهما بعدها أحد تلك المصاعد فائق السرعة الى الطابق الثمانين كما أشارت النشرة الضوئية داخل المصعد حين خرجا من المصعد تبين أن الطابق هذا الذي امتلأ بزحمة الناس لم يكن سوى بانوراما وهو مفتوح من جميع جهاته بواجهات زجاجية مطلة على مساحات متسعة جدا من معالم المدينة وما يحيط بها من جبال ووديان وسهول قد زينتها خضرة معتمة ، أما المدينة فقد أضفت عليها قطع الغيوم المتناثرة في سمائها منظرا رهيبا مدهشاً ، ذُهلا للمشهد الذي انفتح أمامهما وقدم لهما تلك الأطلالات الأكثر إدهاشا ومتعة ، تَضاحكتْ سحاب حينذاك قائلة : ..

– لم أضع قدمي في مثل هذا المكان منذ طفولتي ! .. فأضاف سالم:

– ولولاكِ مارأيتُ أنا هذا المكان الساحر .

شاع مزاج لطيف وهما يستمعان الى الأذاعة الداخلية للمبنى وهي تخبر الجميع بأنهم الآن على ارتفاع ثلثمائة متر عن الأرض . وفوق الرؤوس كانت الريح تسحب الغيوم بسرعة مذهلة كاشفة عن جزء من السماء بلونها الرصاصي اللامع ، قالت سحاب :

– شكرا ، حقا إنه صباحنا الأجمل .

انتهى ذلك النهار على مزاج رائق أضفى لسالم متعة قل نظيرها في حياته إذ لم يكن في شواكتهم ولا بالقرب منها ذلك النوع من ناطحات السحاب ولا ناطحات الأرض حتى . عاد الى سكنه بعد أن ودع سحاباً وشكرها ، حاول إنجاز عمل ما ، لكن عبثاً ، فتح المسجل الذي راح يبث أغنية جنوبية لكنها لم تفلح في تهدئته إذ ما كان قادرا على الأصغاء اليها ، لأن وجدانه كان ينصت الى نتفٍ من جمل ملأته دفئا ، كان ذلك صوت سحاب ، راح يفتش عن أية جملة لوصفه لم يكن صوتاً رنّاناً ولا حُلواً ولا مُنغّماً فحسب ، بل كان ساحراً في ذلك النهار المُفعم بالمتعة والبهاء وهو معها يتبعها كظلها تارة ويصطف الى جانبها تارة أخرى .

حاول النوم فلمّا لم يستطع داهمه ذلك الأرق الذي طالما فعل به فعلته ليالي طوال ، خصوصا حين تداهمه خيالات طريق الموت وهو يَذّكّر كيف رأح يبحث عن مأوى يخلصه من مداهمات أولئك الذين يبحثون عنه وعن سلاحه أين حلّ به وكيف فقده ؟ وأسئلة كثار ، ثم عن أسباب عدم إلتحاقه بوحدته العسكرية بعد ذلك النداء المشؤوم الذي أمر بالتحاق كافة الجنود العائدين من جبهة القتال بعد الأنسحاب لأعادة ترميم وحداتهم ، الأرق هذا حين يداهمه يذكره أيضا بركضه الدؤوب في بساتين العمارة ومزارع الكوت عابراً الأنهر والجداول وهو يعضُّ على ذيل دشداشته المهترئه التي حصل عليها حين مرّ على إحدى القرى فنصحه بعض أهلها أن

يخلع البزة العسكرية ويستبدلها بلباس مدني دفعاً للشبهات ، حصل منهم على ذلك الثوب مقابل ملابسه العسكرية مستمرا في طريقه الطويل بين البصرة وبغداد ، مشياً تارة وأخرى قد يجد من يحمله في لوريات الأيفا أو بعض عربات النقل على الطريق وهي تسير بطيئة وغالبا ما كانت تتوقف لتطلب من ركابها الترجل منها بحجة أنهم قد وصلوا الى المكان المطلوب ، حينذاك يتركها وينضم الى عدد من أولئك الصاعدين الى بغداد مهرولين عبر البساتين والقرى بعيدا عن الطريق العام هرباً من تلك الطرق الملغومة بأفراد الجيش الشعبي والفرق الحزبية التي راحت تقتنص الشباب الهاربين ممن أشعلوا الأنتفاضة في جنوب البلاد .

إستطاع في هذا الجو المتلبد بالمخاوف والرهبة والتعب والجهد أن يصل الى العاصمة ثم الى شواكته التي استقبله فيها بعض أهله والجيران بفرحة غامرة بعد أن يئسوا على ما يبدو من سلامته ، لأن زميله إبن زريق الذي كان قد وصلهم قبله أعلن أنه لم يوفق في رؤية سالم منذ أن افترقا في أحداث طريق الموت جراء قصف طائرات الحلفاء على طول تلك الطريق .

أصبحت الشواكة تلك المحلة التي تعد من أقدم محلات بغداد تقبع الآن في معزل عن كل ما يحدث فقد عزلتها عمارات شارع حيفا لتظهر الوجه الجديد للشارع بعماراته السكنية الشاهقة بيوت المحلة العتيقة وطرقاتها وأسواقها خلف عمارات الشارع الجديد تبقى شاهدا حيا على وجه بغداد القديم ، لم يعزلها شارع حيفا بعماراته جغرافيا فحسب بل عزلها ثقافيا

واجتماعيا أيضا رغم ذلك بقي أهلها يمثلون ماضيهم الجميل بالشهامة والصدق والمحبة والألفة غير المتناهية .لكن سالما ظل يَبيتُ في قلق متزايد إذ لم يستطع العودة الى وحدته العسكرية خوفاً من الأستفسار منه عن مصير سلاحه ومطالبتهم به .

إنه الآن أصبح في نظر الحكومة متخلفاً عن الألتحاق بوحدته العسكرية حتى بعد سماعه نداء الألتحاق وهي جريمة أخرى أضيفت الى جريمة فقدانه لسلاحه ، لم يكن هو الوحيد من شباب الشواكة ممن إقترفوا تلك الجريمة و لم يلتحقوا ، كان أغلبهم قد أصروا على ذلك حتى صديقه إبن زريق قد فعلها أيضا ، وبسبب كثرة المداهمات من قبل رجال الأمن أصبحت دورهم سجناً لهم لا يكادون يخرجون الى اعمالهم أو الى المقهى إلا في أوقات محدودة في أثناء الليل او في بعض أوقات الظهيرة . في بعض المرات التي خرج فيها سالم الى مقهى جابر قرب الجسر وجد بعض الشباب هناك يتهامسون فيما بينهم أغلب هؤلاء من الجنود الهاربين مثله وهم في الغالب من شباب محلته ممن لم يلتحقوا بوحداتهم ، تأكد له ذلك حين حاول أن يقترب من هذه المجموعة ليشاركهم همساتهم ويفهم منهم مستجدات الأخبار لكن حدث أن دخل على حين غرة صديقه إبن زريق الذي حياه مرحبا به وبادره بأسئلة متسارعة: – ــ أين أنت يا ابن زريق ، طوال طريق الموت وأنا أبحث عنك وكم سألت من يعرفنا من الجنود العائدين و لم أحصل منهم على جواب شافٍ ؟

– لقد تهت يا صديقي في تلك الطريق بعد أن اشتد قصف طائرات الحلفاء علينا وقد اختبأت باديء الأمر تحت شاحنة كانت قد خمدت فيها النيران توّا فقلت في نفسي لا يعقل أن يقصفها العدو مرة أخرى وبقيت هناك الليل كله وحين انكشف بعض ضوء النهار لم أجد أحدا على الطريق وبقيت أمشي وحيدا حتى التحقت مع مجموعة من العائدين لم يكونوا من سكان بغداد كما لم يعرفك أحد منهم حين سألت عنك ، الحمد لله إذ وجدتك سالماً الآن يا سالم ، ولكن قل لي : هل إلتحقت بوحدتك العسكرية ؟ ..

ـ كلا يا ابن زريق لم أفعل .

ـ لماذا ؟

ـ لأنني قد فقدتُ سلاحي وأنت تعلم ما هي العقوبة في هذه الحالة ، في الضوابط العسكرية أن تفقد نفسك خير من أن تفقد سلاحك ، فهي جريمة كبرى ، لهذا فأنا خائف بل مرعوب كما ترى يابن زريق.

ـ أنا مثلك أيضا لم ألتحق وقد بعت سلاحي في طريق العودة الى بغداد. حينذاك إقترب إبن زريق من سالم وراح يهمس في أذنه :

ـ إنتبه لما أحدثك به الآن يا سالم ، إنّ هناك حافلات تنقل سرّاً من يرغب من الشباب بالهرب الى خارج البلاد حيث تنقلهم الى المعسكر الأمريكي من خلال قاعدتهم في الجنوب ضمن شروط معينة .. وإنها فرصة

أرجو أن لا نضيعها فنتخلص بذلك من ما ينتظرنا من عقوبات قد تصل الى السجن سنوات عديدة فنضيع نحن ونضيع أهلنا معنا ، فماذا تقول .

دهش سالم لهذا الخبر ثم تساءل قائلا :

– ثم ماذا يا ابن زريق؟ ..

– في المعسكر الأمريكي يعقدون لنا مقابلة بسيطة عبارة عن جلسة استماع ثم ينقلون الجميع الى بلد مجاور لكنني لآ أعرف وجهتهم بعد ذلك .

كانت فرصة ثمينة لسالم فكر أن يغتنمها للتخلص مما هو فيه من حرج ، فسأل صديقه :

ـ هل لديك الأستعداد أن تقوم بذلك يا ابن زريق ؟

ـ كل الأستعداد يا ابن شعلان وإلا لماذا جئت لأخبرك بذلك ألم تجدني متحمساً للأمر ، سأودع زوجتي الآن ونذهب معا أنا وأنت في الصباح الباكر سنكون هناك عند المعسكر الأمريكي .

لاحظ سالم نزول دمعتين على طرفي عيني إبن زريق فسأله :

ـ ما هذا يا صديقي ؟

ـ ليس الأمر بيدي يا ابن صيهود الشعلان ، فأنا أحبّها ؟ أحب زوجتي حباً جما ولا أطيق فراقها ، كيف يتسنى لي أن أتركها وحيدة ، لكن ما باليد حيلة .. هيا !؟

إتفقا على لقاءٍ في مكان الوقوف المحدد لتلك الحافلات بعد منتصف الليل ، ودع سالمُ أخاه وزوجة أخيه اللذين لم يبق له من الدنيا سواهما وكان قد حصل منهما على بعض ما تيسر لديهما من مال قد يساعده في الطريق الذي لا يعرف حتى الآن مرمى بوصلته . وجد سالم وزميله بعد عدة ساعات في صباح ذلك اليوم المعتم الذي تلبدت سماؤه بسحب غبار كثيف ، وجدا نفسيهما يقفان أمام باب المعسكر الأمريكي بينما صديقه إبن زريق ما فتيء يبكي على فراق حبيبته ، قال له:

– لماذا لم تأتِ بها معك ؟

– تأتي معي ، وكيف ذلك وهي طوال ليلة أمس تنتحب وتنصحني أن لا أذهب ، فكيف أقنعها ؟

أعداد غفيرة من البائسين البعض منهم رافقتهم عوائلهم حتى الأطفال والكثير من الشباب الهاربين بغير اتجاه مثلهما، والكل مندفع نحو معسكر العدو .. القاتل / المنقذ .. الناس يتدافعون للدخول الى خيمة المحقق الأمريكي ، باب الخيمة هذا ينتظر الآن أمامه المئات من البشر المتجمعين هنا طلبا للخلاص ، الكثير منهم جاءوا مع عوائلهم وأطفالهم ، حين استطاع سالم الوصول الى المحقق الأمريكي الذي داهمه بأسئلة كثار ، كان أهونها عليه الأستفسار عن إسمه وعمره ومحل سكنه ، وإن كان متزوجا أم لا ، هنا كانت أجوبة سالم سريعة وصريحة لكنه حين سُئلَ عن مهنته تأخر بعض الشيء في الأجابة كان يبحث عن جواب يُقنع الآخر بأحقيته في

الهجرة فذكر للضابط الأمريكي بأنه قد تخرج تواً في الجامعة وتخصصه هو اللغة الأنكليزية ، لاحظ حينذاك علامات الرضا والأرتياح على وجهه ، لكن حين ذكر له بأنه الآن جندي في الأحتياط إمتعض الرجل وطلب منه هويته العسكرية فأظهرها له ، أمعن فيها قليلاً ثم أجابه قائلا :

– إن كونك جندياً في الوقت الحاضر بصفة جندي هارب ليس سبباً كافياً لاستقبالك معنا ، إبحث عن سبب مقنع فقال له في محاولة لأقناعه :

– لقد عدت هاربا من جحيم الحرب وقد فقدتُ سلاحي في طريق الموت وأنا في الطريق الى أهلي مشياً على قدميّ قطعت مئات الكيلومترات مع آلاف الجنود الهاربين من ذلك الجحيم والآن تطالبني وحدتي العسكرية بأعادة سلاحي اليها كما استلمته بعينه وبرقمه المتوفر لديهم وهو أمر مستحيل طبعا وقد يحكم علي بالموت إن لم

أفعل .

إستمع له الرجل بأذن صاغية ثم سأله الضابط :

– وما مهنتك الأصلية بعد تخرجك ؟

– أنا أكسب رزقي من بيع السمك في سوق الشواكة ببغداد إذ لم أحصل على فرصة التعيين بعدُ لحين دُعيت الى خدمة الأحتياط . لكن الضابط الأمريكي عاد فاعتذر له قائلاً :

– كل ذلك ليس سببا كافياً ووجيها للهجرة إبحث عن سبب تُقنع فيه اللجنة .

حينذاك طرأت في ذهن سالم فكرة الأشتراك في الأنتفاضة ضد النظام بعد أن رأى أن معظم الشباب يفعلونها فتقبلهم اللجنة ، عاد الى الرجل قائلاً :

– لقد نسيت أن أذكر لكم بأنني قد اشتركتُ أنا بنفسي في الأنتفاضة وإن إسمي ضمن المطلوبين للقبض عليّ ،حينها طلب منه الضابط الأمريكي شاهدا يؤيد أقواله فانبرى له صديقه ابن زريق الذي أيد ما قاله زميله بطريقته المتوسلة وكان حينها يقف خلف سالم ويسمع ما يدورُ حوله.

إبتهج سالم كثيراً حين ناوله الضابط الأمريكي إستمارة طلب الهجرة وهو يأمر المترجم أن يملأها له من خلال معلوماته ثم يعيدها اليه معلنا قبوله.

هكذا حدّث سالمٌ سحاباً مرة حين التقاها وبدأت علاقتهما تنمو وها هو الآن يفتقد صديقه إبن زريق البغدادي جاره الذي أدخله في هذه الشرنقة فقد كان السبب المباشر الذي دله على طريق الهجرة ، يفتقده الآن ، لا يدري ما الذي حل به ، دوما يتذكر كل اللحظات التي طالما قضاها معه ، يذكُرُهُ كلما تذكّر لون السماء ورائحة الرمال عند شاطيء دجلة قرب جسر الشهداء أو تحت ظلاله أحيانا كانت تلك قبلتهما الأولى يحجان اليها كل يوم طلبا للرزق ، ثم يذكر تلك الليالي الحالمات التي قضياها في مقهى جابر على شواطيء النهر الخالد ، كل شيء هناك يذكره الآن يومياً ، حين يذكر ذلك لم يعد يهمه أي شيء في حياته خصوصا حين

يكون في مسكنه البائس لوحده هنا ، يرقب هذه المدينة عن كثب ، تلك التي أصبحت مدينته التي يحمل إسمها عنواناً لسكنه فحسب ، فهو يشعر بانه مصاب بالذبول هنا لأنه بلا جذور مرغم على العيش فيها مثل جزيرة ليست محاطة بسوى السماء والماء ، فهو هنا ليس بمنأى عن كل أشكال البؤس الذي يراه بأم عينيه خلف البريق الخادع للشواطي الجميلة والعمارات المتلألئة على جبين البحر الهادر ، هنا تعيش أقلية وربما أغلبية مهمشة يعيشون يومهم بقليل من الموارد والبعض منهم دون مسكن حقيقي . فكر حينذاك أن شواكته رغم بؤسها قياسا لما هو فيه وما يراه أجمل وأفضل بكثير على الرغم من الحروب ومشاكل الفقر والغلاء وغير ذلك . حقا ،(كنت هناك أوفر حظا ، كنت أستطيع أن أعمل نهارا في صيد السمك فأوفر بذلك رزقا لا بأس به وتتيح لي الدولة الدراسة المسائية بالمجان ، كان بمقدوري أن أعمل هناك وفقاً لشهادتي الجامعية لو أن الظروف كانت طبيعية ولولا أداء خدمة الأحتياط لتلك الحروب التي لم يكن لي فيها ناقة ولا جمل ، حتى نفذتُ بجلدي الى هذا البلد الغريب).

7

هذا المساءُ رائقٌ جداً ، وقد راق أكثر للحبيبين سالم وسحاب حين بلغا المقاهي المنتشرةُ كراسيُّها الحُمْرُ وموائدُها البيض ، كل تلك المقاهي تمتد مقاعدُها على طول الرصيف في ذلك الشارع الأجمل وسط المدينة ، لم تكن لسالم أية خطط مبيتة الآن ، ربما بعض الأفكار التي تمهد الطريق لبدء حديث ما مع سحاب ، حاول أن يحاورها في موضوع ما لكنه عاد الى فكرة كانت تراوده منذ بداية هذا الصباح إذ راح يحدث نفسه ويسائلها إن كانت تواقة الى العودة الى شواكته البغدادية ، ففي هذه الأيام بالذات وبعد كل تلك السنين الخوالي بدا عوده يهتز طرباً كلما عادت الذكرى تطرق ابواب وجدانه فينتفض الفؤاد محاولاً فتح باب واحدة منها على الأقل لأنّ الصدأ هنا كاد يغلق الأبواب الى الأبد ، هل له أن يعود يوما الى بلده لتدريس أبنائه الذين يعرف مسبقا أنهم يطلبون الوظيفة من خلال دراستهم أكثر مما يطلبون العلم ، إتجه الى سحاب بعد أن إتخذا مكانا في واحدة من مقاهي تلك الأرصفة في ذلك الشارع العريض حاول أن يطرح عليها ما

خطر بباله قبل قليل لكنه تردد .. وفجأة عاد الى سحاب وصار كأنه يفكر بصوت عال أمام وجهها محدثا نفسه :(لن أعود الى بيتنا القديم في محلة الشواكة رغم حبي له لأن شارع حيفا قد خنقه ولأن الشواكة لم تعد صالحة للسكن سأبني بيتاً جديدا في مكان ما من بغداد ، سأعمل على أن تكون نوافذه متسعة باتساع أحلامي وستكون لي فيه بركة كبيرة سنسميها مسبحا ولن يسبح فيها سوى البعوض في ليالي الصيف .) دُهشتْ سحاب وهي تنظر اليه فاغرة فاها لما فرط منه من حلم معلن وأفكار تطفو على السطح دون سابق إنذار ، خصوصا حين بدت منه ضحكة خافتة فتساءلت هي حينذاك :

– تستضحكُ وحدك ها ؟ ، ما الذي يُضْحِكك ؟ حكى لها :

– كان ذلك وهماً ذاك الذي إعتراني والذي سمعتِ قبل قليل .

– وأنا .. ألم يكن لي مكان في خططك المستقبلية ؟

حينذاك منحها سالم ابتسامة خفيفة استرضاءاً لها قائلا :

– لم تكن خططا للمستقبل بهذا المعنى يا سحاب بل هي إرهاصاتُ خيالٍ عابر

– أنا لا أريدك أن تكون الطائر الغريب يأتي ويذهب متى يشاء !!

حينذاك إنفرد هو محدثا نفسه (آه يا شعلان ، يا جدي ، إسمك الرهيب هذا الذي جعل أسرتنا تنقسم على نفسها حتى إستقر قسم منها في شواكة بغداد وحسبنا حينها أن الأمر قد انتهى .. لكنه بدأ !

النادل الذي جاءهما بكوبي الكاباجينو إستفز سالماً كي يستدير نحو سحاب قائلا :

– إن الشبه بينكِ وبين أمي هو سر انجذابي اليك ولا أقصد الشكل بل الروح !

– هل تحتفظ بصورة لأمك ؟ أتمنى أن أراها إن كانت معك ؟

– قلت أني لا أقصد الشكل بل الروح يا سحاب ..

ألقتْ أصابعها المتشنجة على رسغ يده ضاغطة عليه بقوة .. لم تقل شيئا راحت تغرز أظافرها في يده كأنها تدق مسامير العشق فيها ، ثم أخذت يده ، قبّلت باطنها وظاهرها حتى فاح عطرها اللذيذ وهي تحني رأسها نحوه قائلة :

– هل تتزوجني يا سالم ؟؟

خجل كثيرا من نفسه لحظتئذٍ ، إعتقد أنه كان الواجب عليه أن يبادر هو بهذا السؤال ..

فبادرها قائلا:

– هل تعلمين يا سحاب بأني منذ أن إلتقيتك في فرن الخبز أول مرة ، شعرتُ بأنك نصفي الثاني الذي أبحث عنه كثيرا حتى في أحلامي وها أنا الآن أتخيل أن ماء دجلة يجري في ثنايا خديك ويتلألأ في عينيك الصافيتين .

قضّى سالم اليوم معها ، حدثها كثيرا عن أيام زمان ،عن بغداد التي صارت تعشقها أكثر منه . لم يكن بمستطاعه أن يفارق سحابا مطلقاً ، هذا

الأرتباط الروحي أيدته الشراكة في العمل وعمّقته أكثر فأكثر، خصوصا حين أصبحت سحاب وحيدة بعد وفاة أبيها ، ثم إن هذه الحال عمقت لكليهما الشعور بالغربة مع أنها كانت لا تعتبر نفسها غريبة في هذا البلد فهي المولودة هنا وهي المواطنة الأمريكية التي تحمل الجنسية ذاتها وهنا عاشت مع أبيها وجدها ،لكن شعورها بالغربة هاجسٌ طاريء بعد أن فقدت والديها واحدا بعد الآخر وهذا أيضا يفسر شدة تعلقها بسالم إضافة الى الحب الذي جمع قلبيهما فكان أنْ تضامنت مع غربته هو تلك التي امتدت الى أكثر من عقد من الزمان على الأقل .

الزمن مهما طال صارا يريانه قصيراً وهما معا يستعدان للحدث المهم لكليهما ، وفعلاً لم تمر سوى أشهر قليلة حتى إحتضنتهما معاً شقة سحاب فصارت تلك الشقة أجمل عش لزوجين حبيبين جمعتهما مصادفة غريبة ، والأجمل هو أن تلك الشقة تقع فوق بناية الفرن فتخلص سالم حينذاك من عبْ الرواح والمجيء صار المكان عشاً لهما معا ومكاناً لعملهما أيضاً .

صارت الساعات الأولى من كل ليلة تأخذهما الآن وكل آن الى شقتهما وحين يتسرب الظلام بين أعينهما يغرقان في لجة الصمت ، لم يعودا يخرجان الى النادي كثيراً حتى ودّعا تلك الليالي التي كانا يقضيان معظمها في تلك الصالة القريبة من الفرن الى وقت متأخر فيعود كل منهما الى مسكنه . قدرة عجيبة استحوذت عليهما الآن راحت تدفع بهما الى المزيد

من التواصل والعمل الدؤوب داخل الفرن الذي صار بحاجة الى تواجدهما المستمر طيلة النهار على الاقل .

العاملان اللذان يشتغلان معها بأجرهما اليومي أميركيان من أصل لبناني أيضا ، جرجيس الرجل المسيحي المسن وإبنه الشاب يقع عليهما عبء العمل داخل الفرن يتولى الأب إشعال الفرن وتهيئة العجين، ويقوم ابنه بانضاج الخبز ، لم يكن الفرن يعمل بالكهرباء كان فرنا بدائيا يشبه الأفران الحجرية . حين كان الطلب على الخبز كثيرا بقي العمل مستمرا ومكثفا بوجود والد سحاب قبل وفاته وكان عمال الفرن يتجاوز الخمسة أو الستة ، أما اليوم وقد خف الطلب على الخبز لم يكن الفرن بحاجة اليهم فلم يبق منهم سوى هذا الرجل المسن وابنه . سحاب بمثابة المحاسب والبائع وهو عملها حتى في حياة أبيها تجلس خلف محصلة النقود أما سالم فكانت مهمته تهيئة الأمور الخارجية كشراء الطحين وجلب الوقود وغير ذلك .

بعد حين لم تعد سحاب تكثر من النزول الى الفرن والتواجد فيه خصوصا بعد مرور أكثر من سنتين على ارتباطهما بعقد الزواج ، والأهم من ذلك حين اخبرهما الطبيب بان سحاباً تحمل في بطنها مولوداً .

هذه الليلة لا تشبه تماما كل ليلة مرت عليهما حيث تعقدت الضجة في أفقها ، وراحت أضواؤها تشع وتلتمع وهما يقضيان بعض الوقت ، يتمشيان على الرصيف القريب ، في محلتهما أضواء تتراقص على واجهات المحلات ، تتساقط الأنوار على الأرصفة وأرضية الشوارع من المصابيح

المتناثرة المتسللة أنوارها من الأبواب وواجهات الحوانيت والمعارض الزجاجية ، كما ينبض النور من الكوى وشبابيك الشقق ونوافذها المضاءة في الطوابق العليا كأنها عيون سحرية تملأ ليل المدينة.

ها هما قد عادا الى الشقة ، استطالت سهرتهما فأخذا يشعران بنعاس ثقيل وخمول ظاهر بتأثير عملهما المستمر في الفرن طوال النهار ، لكنه حين وجد زوجته تتألم وتتلوّى لم يستطع النوم أيقن أن ذلك من علامات المخاض فكان لزاما عليه أن يبقى منتبها حتى إذا ما جاءها المخاض أستعد لنقلها الى المستشفى . وفعلا لم تمر إلا برهة قصيرة من الزمن حتى صارت تصرخ فاتصل بالمستشفى وحينها وصلت عربة الأسعاف .

صحيح أن الذي فهمه سالم من أن إله الحرب كان يستهدفه لكنه فهم أيضا ان هذا الأله لا يستطيع أن يصل الى مثل هذا البلد الذي يعيش فيه الآن ، لذا فهو يعشعش في بلده وأمثاله ، هناك في بلده لم يكن يستهدفه لوحده بل إن الأدريسي قال له مرة نقلاً عن اله الحرب بأن ولدا جميلاً سينجبه إن هو تزوج سيجد على جسده كدمات هي آثار أقدام إله الحرب ولمسات يديه ما يدل على أن ذاك الأله الشرير لا يستهدفه وحده بل إنه من المؤكد سيستهدف ذريته كما فعل مع أبيه وكل أجداده من قبل ، لذلك لم يكن سالم يفكر بالزواج حينذاك حين كان يعيش في الشواكة القريبة من وقع أقدام إله الحرب وعميله الأدريسي الذي لايفتأ ينقل له أخبار وتصريحات هذا الأله الشرير.

هنا في هذا البلد لن يخاف على ولده الجميل الذي سمّاه (أمل) والذي ولدته سحاب هذا اليوم ووضعته تواً بين يده ، لكنه يبقى يراوده القلق على إبنه فيعود الى نفسه متسائلا :

– هل سيتعذب ولدي فعلا على يد إله الحرب لو عدتُ الى موطن أبي وأجدادي الى شواكة أهلي ؟ وهل إن هذا الولد الشوّاكي الجديد سيذوق مرارة العيش كما ذقتها أنا إبن صيهود الشعلان ؟.

طالما آمن سالم بأن الأنسان لم يولد إلا ليتعذب إقتنع بهذه الفكرة فكان يشعر مع العذاب بارتياح شديد يبحث عنه ، بل يعيشه أحيانا وقد عودته أمه على ذلك ، فقد كانت تتلذذ بصيحات الحزن وصرخات الألم وهي تغني في أجمل لحظات سعادتها . أما هو فقد أخذ صفة التلذذ هذه من أمه بل تفوق عليها حيث لم يكن يعطي الفرصة للسعادة كي تفسد عليه عذابه إن هذه الذرات السعيدة لو جاءت فلابد أن تذوب وتتفسخ داخل ذاته .

لعل عذابه إبتدأ منذ أن لُقّمَ أثداءِ النساء ليشرب حليبهن بعد أن نشف حليب أمه وجف ضِرْعُها بعد أيام من ولادته فأخذت تدور به على النساء الولودات في درابين الشواكة ليرضع من أثدائهن ما تيسر ويسد الرمق حتى رضع سالم من عشرات الأمهات حتى نما بدنه من هذا الخليط العجيب ، لذا فهو قد يجد نفسه ألأكثر إدراكا لغرابة العالم وأمزجته المتداخلة المتنوعة . حتى حين كبر كان إذا دخل محلتهم تتلقاه عشرات العجائز ..

كلهن أمهاته ، هكذا هو سالم الآن لا أحد يذكر اسمه الصريح ، كل أهله في الشواكة ينادونه بما ناداه به معلم الأبتدائية (سويلم).

أما هنا في الغرب الأمريكي فأنه يُعرفُ بـــ (مِسْتر شَأْلان) ينادونه بأسم جده شعلان ، بعد أن أصبح صاحب فرن الخبز اللبناني في تلك المدينة النائية الساحلية في أقصى بقعة أمريكية .

8

في الشتاء ، يبدو شارع لنكولن والفروع المتصلة به ميتة لا حراك فيها لأنها تمتليء بالجليد الذي يرتفع منسوبه ليلا بوضوح ، كان سالمُ يراه جميلاً لشعوره بأن الشوارع هنا تكتسي بلون البراءة النقية بعد أن تفقد لونها الأسود ، أذ يروح يراقب ذلك الشارع عن كثب من داخل الفرن وهو يتمتع بالدفء الذي تمنحه حرارة الفرن المنبعثة من الداخل المتقد دوماً .

تتزل سحاب من شقتها يسبقها أمل متراكضاً نحو الفرن وفي الحال يعبث بكل شيء أمامه ، يتحرك كثيرا حتى أنه يتسلق الدكة التي يُنشر عليها الخبز وقد يسحب قرصاً من تلك الأقراص الساخنة ، يقضم بعضه ثم يعيده الى مكانه .

فكّر سالم في تلك اللحظة وهو يرقب حركات أمل وعبثه بأنه قد وقع في الفخ فعلاً ، فخ الزوجية ، بعد أن كان واحداً صار ثلاثة تنهد عميقا

لكنه لامَ نفسه على هذا الظن السيء فهو قد أحب سحاب وأحب أمل ربما أكثر من نفسه .

الركود الذي أصاب عملهم في الفرن بسبب قلة الأقبال على شراء الخبز لقلة الراغبين بهذا النوع منه بعد أن انتشرت الأفران الأوتوماتيكية وتعوّدَ الناسُ على الخبز الذي تنتجه ، ثم إن هذا الركود يعزوه سالم الى أن أجيال العرب المهاجرين الى هذه البلاد والذين كانوا يفضلون هذا النوع من الخبز على غيره قد انقرض معظمهم . بسبب تقادم الزمن ، أما الأجيال التي أعقبتهم قد تغيرت طبيعة تصرفاتهم لآندماجهم في المجتمع الذي ولدوا فيه ، لذا صارت عملية تصريف منتوجهم من الخبز بطيئة شيئا فشيئاً حتى إنهما لم يعودا يستطيعان ان يوفّيان العاملين اللذين يعملان عندهما أجريهما فتنازل العامل الأب عن عمل ابنه وتولى العمل وحده داخل الفرن ومعه سالم فقط .

لذلك فقد وجد سالم نفسه يعيش نوعا من النفي ولو أن هذه الحالة قد رافقته منذ أكثر من عقد من الزمان لكنها تفاقمت في السنوات الأخيرة حتى دفعت به الى التفكير بالعودة الى بلده وهو الأمر الذي أخذ يفكر فيه بجدية لولا ارتباطه بسحاب وولده أمل اللذين أحبهما كثيرا ،

وجد سالم نفسه الآن محاطاً بالمحظورات والممنوعات ، وراح يتخيل أشخاصاً مرئيين وغير مرئيين يراقبونه ، في الوقت الذي لازال يعتبر نفسه

هنا ضيفا على هذا المجتمع أو زائرا على الرغم من أنه قد عبر أشواطا من السنين التي كانت تعمق في داخله توقاً شديدا الى حدوث شيء ما ، شيء يغير حياته ، إعتقد بداية أن زواجه من سحاب سيقنعه بذلك ويغير حياته .. لكن وجله الذي ورثه من حادثة وفاة أمه راح يتفاقم فيجعله يبتعد عن أي تغيير ، محاولا أن يبتعد عن جميع الغرباء من حوله في هذا المكان حتى صار بيته ملجأه والفرن مكان عمله وقفص أسره في الوقت نفسه .

هذا المكان أحب سالم البقاء فيه والهرب منه في الوقت نفسه ، لأنه واثق بأن أحداً لن يستطيع أن يطرده منه ، تعلق بزوجته وإبنه كثيراً لأنه أصبح محتاجاً اليهما أكثر من ذي قبل ، فهو يرى عالمه الخارجي من خلالهما لأنهما أقرب الناس وأعزهما إليه ومن خلالهما نفذ الى ذلك العالم الذي كان يكرهه على الرغم من أنه منفيّ عنه . وها هو الآن يظن أن حياتهما لم تكن أسهل من حياته ، فزوجته أجبرت في الفترة الأخيرة على البحث عن عمل ، كي تسد النقص الذي بدأ يتفاقم في مردودهما المادي الذي كانا يحصلان عليه عبر باب رزقهما من الفرن الذي بدأ ينغلق شيئاً فشيئاً ، حين وجدتْ سحابُ عملاً مقابل أجر زهيد لم يكن محفزا بل كان أجرا مهيناً واقع الأمر ، تحتم عليها أن تنتقل داخل المدينة من مكان الى آخر وبالطبع عمل كهذا لابد أن يكون شاقا ، مع ذلك لم تكن تتذمر

أبداً، لكن الأحباط أخذ يطغى عليها أحيانا كثيرة ، عند ذلك راحت تمطر زوجها باللوم و التقريع ، في الوقت الذي لم تكن بيده حيلة ، و لم يكن له عمل سوى جلوسه في الفرن الذي صار عبئا عليه بعد أن كان مصدر رزقه، لم يبق أمامه سوى أكداس الخبز الذي أصابها الكساد وامتدادات النهار الذي لاحدود له ، وعمق الصمت ، ليس سوى شيء من ذلك اللهو الطاريء اللذيذ وهو انتظار عودة أمل من مدرسته ، ذلك الأنتظار الذي راح يرعاه سالم بشوق إذ يطرب على وقع صوت قدمي أمل الصغيرتين وهو يعبر الشارع باتجاه الفرن ، كان ذلك فقط النافذة الوحيدة التي يطل منها على الأمل كما هو الهرمون الذي يضخ في نبضه شيئا من الحياة .

جلوسه الآن في الفرن يشعره بثقل السقف وثقل الجدران وكل موجوداته عليه وهو ينتظر عودة زوجته وولده وعندما تكسرُ الصمتَ خطواتُهُم يشعر بالسكينة تعود الى نفسه ، لاسكينة الصمت بل سكينة الحياة .

الأمل بحدوث شيء ما إستمر واهياً وضعيفاً طيلة سنواتٍ مجدبةٍ متعددة حتى صار خيطاً عنكبوتياً لا يمكن التعلق به ، لذا فقد صُعق سالم حين تجدد في ذهنه ذلك الأمل وعاد بقوة مسيطرا على إرادته حين سمع عبر إحدى الفضائيات أن جيوش الحلفاء قد دخلوا بلاده وهاهم يزحفون نحو بغداد . كان عنوان دخولهم : التحرير ، صحيح أنه كان يتابع عبر

الفضائيات ما يدور في بلاده من أحداث يتفاعل حينا ويتمنى أن يتخلص أهله مما وقع عليهم من بلاء ويرمي باللوم أغلب الأحيان في ذلك على الأمريكان الى درجة أنه يشعر بأنه كان يخشى أن يجرح شعور زوجته كمواطنة أمريكية لكنها كانت تقف معه في مرات متعددة ، كانت تشتم الجميع مما يعرف بالحلفاء خصوصا بعد أن اطّلعتْ على أسباب تلك المحنة عن طريق زوجها وما حل به . لكن سالما أيضا بدا فرحا بما يحدث الآن حين وجد أن معظم الناس في بلده قد أيدو غزو الحلفاء ورحبوا بجيوشهم وهم يعبرون المدن العراقية دون ان يجدوا مقاومة جادة سوى بعض المواجهات والأشتباكات التي لا طائل منها وبقي سالم مستمرا في مراقبة الوضع حتى أعلن نبأ سقوط النظام هناك ، وظلت سحاب تراقب الوضع أيضا عن كثب وراحت ترى أن الأحداث تمر كأنها هنا في بلدها تفاعلت معها كما يفعل زوجها الذي دخل في دوامتين فرحة أن يتخلص بلده وأهله من نظام شمولي دكتاتوري قمعي يخالط ذلك حزن شديد أيضا فيما يراه أمام عينه من دمار وخراب تسببه آلة الحلفاء الحربية تلك التي اجتاحت البلاد إضافة الى التفكير بالمتاهة التي تكتنف مستقبل البلاد التي خضعت لغزو مدمر .

طيلة الأيام الماضية صار شغلهما الشاغل هو الوضع الجديد ومتابعة الأخبار كل ليلة حتى ظهرت الحركة السريعة في محرار الحس الوطني بالنسبة

لسالم بعد أن كان قد نسي أو تناسى ارتباطه العضوي ، هنا فقط إتجهت البوصلة نحو الشرق ، ففي جلسة في مساء يوم كان هادئا نسبيا وبعد أن التأمت العائلة الصغيرة ، أخذتهما البوصلة تلك الى بغداد ، تلك التي عشقتها سحابُ منذ ان كان سالم يكثر الحديث عنها . لكن البوصلة التي اتجهت بهما الى بغداد هذه المرة كانت تأمرهما بالهجرة اليها ذلك بالنسبة لسحاب، أما بالنسبة لسالم فليست الهجرة هي المفردة المناسبة بل العودة الى الوطن الأم ، عودة قد تكون ميمونة كما يأمل سالم ، عودة الى الشواكة وهل من مكان آخر غيرها ، شواكته تلك تعني بيت أهله والجيران والأصدقاء ودجلة وشواطئها وأسماكها والنوارس ، الشواكة تعني الأزقة والشوارع الضيقة والسوق ودكاكينها وبيوتها ونوافذها المشرعة ، إنها تعني بالنسبة لسالم عشرات من أمهاته العجائز اللواتي أرضعنه حليبا نقيا صافيا تعجز كل علب النيدو أن تأتي بذرة من مثله .

مرت شهور قلائل وهما يرقبان الوضع عن بعد وعن كثب ، وحين استقرت الأمور هناك وانتهت (الحواسم) وخرج المارد من حفرته بلحيته المتمردة وشعره المنفوش لم يكن أمامهما حينذاك سوى أن يتجهزا للسفر بالأتجاه الذي حددته بوصلة الحياة ، باعت سحاب الفرن الذي ما عاد يوفر لهما لقمة العيش في بلدها برغم غناه من يفقد تلك اللقمة سوف يموت جوعا . ساعدهما ما توفر لديهما من مال في الأنطلاق نحو حياتهما

الجديدة، إحتضنتهم جميعا إحدى الطائرات عبر المحيط الأطلسي الى بلد النخيل ، سالم ابن البلد الذي احتلته أمريكا وغزته في حرب شعواء وزوجته سحاب ابنة أميركا الغازية لبلد زوجها وابنهما الذي يحمل الجنسيتين .. مع هذا لم تكن تلك مفارقة عجيبة !!

9

تضاءل حجم النهار هنا ، إذ ما عاد ضخماً عريضاً في بيت أهله العتيق في محلة الشوّاكة ، ولم تعد الدار مأهولة كما عهدها ، ليس سوى أحد إخوته مع زوجته التي لم تنجب .

الصيف الثقيل هنا يُجرْجِرُ خلفه خريفاً أصفرَ وشمساً مريضةً ، ما كاد سالم يضع قدماً على أرض بلاده حتى أحسّ أنها قد تحولت الى نار مُتقدة تسري في كل ما يحيط به وما يقع حوله ، وقد تغير صنف البشر في كل شيء فلم يعد الأنسان هنا يحمل ولو بعضاً من تلك الصفات الموروثة عن الأهل والأجداد ، لقد تزاحمت الأضداد وتراكمت الصور الكريهة في بلد كان يحمل أجمل صورة تاريخيا على الأقل في نظر من يجاوره من البلدان.

صارت أحزان سالم تشبه أحزان آدم الأولى حين أركبه الرب ظهر جوادٍ ضخامته تسد الأفق عَبَر به ذاك الجوادُ الفضاء وهبط على أديم هذه

الأرض وقد اختار أطيبها ، إختار مكاناً مُمْرعا ، أرضا تميزت بكثافة خضرتها ونصاعة تربتها وطيب هوائها ، فأراد آدم أن يبني على هذه الأرض مسكناً جميلا يؤويه وذريته ، يبني بيتاً كبيت مولاه ذاك الذي طُرد منه . وكانت إرادة إبن آدم (سالم االشعلان) نفس إرادة جده آدم ليس إلا ، إذ ما كان يحسبُ أن روحاً شريرة إنتشرت بين ناس بلاده تلك التي بدا أنّ أحد شياطين إله الحرب لم يستطع أن يؤجج حرباً جديدة مع الجيران فاكتفى بأن يثير حرباً بين أبناء البلد الواحد ، شتت شملهم ودَلهم على أفضل طرق الفرقة والتناحر ، ومنحهم ألقاباً جديدة مزقتهم شرّ ممزق ، أفسد عليهم كل مشاريعهم ، هم الذين أرادوا أن يزرعوا في بلادهم السعادة فنفثت فيهم تلك الروح الشريرة أنفاساً سوداء من البغضاء والأنانية، أرادوا أن يبنوا العدل والمحبة فغضبت الروح الشريرة ونفخت في صدر قابيلهم الذي تناول الصخرة وقذفها في وجه هابيل أخيه فتفجرت على الأرض أنهار الدم والخراب ، وملأت الأنفاس الثقيلة الهواء فأفسدته ، وتسمّم الجو فوق الرؤوس حتى صار الناس يتنفسون الرماد والصديد .

إعتزل سالم ، أصابه العطب ، لم يعد يتعامل مع هذا العالم الذي فعل الشرير وأتباعه ما فعلوه لتخريبه ، هذا العالم الممسوخ الذي يمتليء بالشر والتفاهة ، إعتزل سالم الناس كلهم حتى ناسه في شواكته ، إعتزلهم في الشارع والمقهى والعمل ، في كل مكان ، لأنه كان يرى الشر في أحداق

عيونهم ، العالم المتسخ هذا لابد أن يتم تنظيفه كي يموت الروح الشرير فيعود العالم نظيفاً كما عهده .

لم يكن يكترث في أيامه العصيبة هذه إلا بزوجته سحاب وولده أمل ، أولئك فقط هم أحبابه وناسه وأصدقاؤه الذين يشاركهم الحياة بعد أن انقلبت الدنيا في هذا المكان الذي طالما أحبه وبكى طويلا على فراقه وتمنى كثيرا أن يشم ترابه لم يكن يكرهه ولكنه نبذ ما فعله الشرير في أهله حتى صاروا شيعا وأحزاباً ، أشكالاً من البشر لم يعهدها من قبل كل يقلد طائفته ، اللحى والخواتم والمسابح ودمغ الجبهات ، والعمامة والعقال والسدارة البغدادية والجرّاوية كلها صارت إشارات للفرقة والتناحر .

كانت أمه فيما مضى تداعبه قائلة :

– بيت جدك هذا كان جدك فيه سلطاناً ، وما سلطان إلا الله !

لكنه الآن يجلس في بيت أهله وفوق رأسه ألف سلطان وسلطان . صوت أمه هذا أعاده الى الأمل في ولده ، راح يحلم أنه عندما يكبر إبنه أمل فسوف يجعل من نفسه سلطانا يجتاز بسفينته البحار السبعة وسيأتي من آخر الدنيا بزينةِ النساء جدته (شمس) أمّ سحاب وهي تجر جدائل شعرها الأسود الطويل فوق الأرض المفروشة ببُسُطٍ أنيقة وسوف يبني لنفسه على هذه الأرض قصراً عظيماً تأتي العصافير لتبني أعشاشها في شجيرات حدائقه، ثم يعود بعد ذلك الى صدر أمه لينام راضياً سعيداً مرتاح الضمير .

لكنه الآن يناغي ولدَه ، طائره الجميل :

– (يا طائري الأزغب الجميل هل تعلم بأنني قد فقدتُ هنا راحة الضمير، أعيش هنا حاملاً ذنوبي وآثام غربتي ، أبحرت عبر البحار السبعة وحرثتُ بمجاذيفي أمواجها بلا جدوى ، عدتُ من رحلتي الطويلة خائباً بلا غنيمة ، وقصر الطفولة الذي بنيته في أعوام عمري الأولى قد خربته أعوام ما تبقى من العمر ، حديقة القصر الذي حلمتُ به لم تنبتْ لي سوى الصُّبار والشوك الذي أدماني حين عدت الى محلة الشواكة فلم أجدها سوى شواكة فعلاً).

لم يستطع سالم أن يستعيد في ذهنه عن هذه المدينة المتسعة سوى تلك الصور القديمة التي تندلع في مخيلته كلما خرج من بيتهم القديم كانت سوق المحلة تستقبله بدكاكينها التي لم تتغير منذ أمد طويل ، لاهي تغيرت ولا بضاعتها ، ثم الطريق المفضي الى الساحة المؤدية الى جسر الشهداء أقدم جسر على دجلة في العاصمة ، ثم مقهى جابر ، تلك المقهى التي صارت ملاذه الأخير مثلما كانت ملاذ صباه وشبابه حين كان يرتادها مع بعض شباب محلته فاكتشف فيها معالم بدايات حياته وهو يتناغم مع أصوات أمواج النهر الخالد وزعقات النوارس التي تمنح المكان الأجمل زيادة في جماله الباهر وهي تتزاحم قرب الضفاف في فصل الشتاء خصوصاً لتلتقط بمناقيرها كل شيء يطفو على سطح الماء . أما سالم ذلك الطفل المبلل دوما يراقب

النوارس من بعيد وقد يرفع رأسه مستقبلاً خيوط المطر المنهمر راقصاً مع أطفال المحلة الذين تبهرهم إيقاعات المطر وقد استبدت بهم هستيريا الفرح .

لكن بغداد لم تعد كذلك .. هي الغارقة الآن في ظلام بارد ، ظلام كثيف ، البغداديون يتخبطون في مصائرهم باحثين عن فجرٍ بغداديٍ جديد يضيء لياليهم التي فقدت ألقها وانطفأت فيها جذوة الحياة ، ليس سوى أصوات الأنفجارات المدوّية التي تهز أركان المدينة ليلا ونهاراً تثير الفزع في النفوس وتفتك بالآلاف من الناس الذين لا ذنب لهم في ما يحدث حتى صار الموت جزءاً من الحياة هنا .

وتبعا لذلك وبتأثير كل هذه المستجدات في حياته وجد سالمُ نفسه يتألم مما يحدث له فهو لا يستطيع أن يتحدث عن ذلك إلا مع زوجته ، راح يتألم أكثر لأنها أخذت تقاطعه حين يحدثها عما يجري له وما يراه أو ما يحلم به فتطلبُ منه بصيغة الأمر أن لايروي لها ما يحدث له لأنه يؤلمها كثيراً أن تسمع ذلك منه حتى اضطُرّ مرة أن يروي لها كل شيء دفعة واحدة كأنه يتخلص من ثقلٍ يحمله ، روى لها بكل وضوح ، قال لها ما يستحيل روايته ، وما دعاه الى الخجل مما يرويه لها ، وهذا نفسه مايجعله لا يروي ذلك لأحد غير زوجته الأمر الذي جعلها تتقنّع برباطة جأشها ، غير أن صمتها الحجريّ أخيراً جعلها تشعر بالخوف فعلاً . وحين نطقت في وجهه قائلةً :

ـ ما الذي جعلك تخرج من البيت مسرعاً بملابس النوم ؟

ـ نهضتُ من نومي فلم أجد أملاً ولدي في فراشه !

ـ أ لم تكن تعلم أنه يذهب الى دوامه في مثل هذا الوقت ؟

أزْجَتْ اليه نظرة هادئة لكنها مشوبة بالحزن ثم عادت تقول :

ـ يا حبيبي دع القلق جانباً ، أنت إنسانٌ سويّ ، ليس من خطر يهددك !

ـ (سويّ) .. نعم ولكن .. الناس الأسوياء لا يطيرون ؟

ـ وهل طِرْتَ أنت ..؟

ـ لا أدري .. ربما !!

ـ هل لديك دليلٌ أنك قد طرتَ فعلاً ؟

ـ نعم .. إنه اعتقادي بأن هناك أموراً أكثر واقعية حتى من الواقع نفسه.

ـ أوه .. أرجوك أترك هذه الهلوسات ؟

ـ إنها تشبّ عندي فجأةً ، بلا سبب واضح .

ما عاد سالم يعرف إمكانيات الوعي كلها عنده ، لذا فقد لزم الصمت . فعادت هي إليه تقول :

ـ لماذا تتبالهُ ، حاول أن تفكر قليلا بطريقة أكثر جدية .

ولأنه في الغالب لم يكن مهتمّاً ومتأهباً لمجادلتها .. قال :

ـ كفى .. لا تقلقي عليّ ؟!

حين عاد سالم الى البيت هذا اليوم ، كانت الساعة الحادية عشرة ضحىً ، لم يكن خائفاً مما حدث بل مما سيحدث ، قبيل الظهر كان موعد عودة أمل من الجامعة التي التحق بها في بداية هذا العام ، عامه الدراسي الأول . خرج سالم الى باب دارهم كعادته يقف هناك في انتظار عودة ولده . الشمس التي تغمر الشارع الممتد غطّت كل الممرات المشجرة بخضمّ من الضوء ، لفت ذلك إنتباهه الى أن شيئا من جمال الطبيعة يتناغم مع روحه الهائمة في بعض أحلامه ، إذ وجد نفسه مدركاً مدى حماقته غير المتناهية ، حماقته التافهة وهو يقف على باب دارهم ، حاول أن يتجنب التفكير في الأمر ويعود الى الداخل ، لكن أمل كان يظهر في مخيلته فيعيقه .

في الأمسية البارحة إعتراه هاجس مشؤوم في منامه أعاد اليه حلمه فوجد نفسه يطير مرة أخرى في سماء المدينة فوق هامات عماراتها ومساكنها وحاراتها وسط سحب خفيفة منبسطة ، كما وجد نفسه مبتهجا ممتلئا بسعادة تكتنفه ليس لها حدود آنئذٍ ،.

كانت شمس تشربن تفرش خيوطها الذهبية لتكشف له تفاصيل المدينة وترسم خيوطا قزحية فوق الأمواج المتهادية لنهر دجلة ، بات يحوم على مقربة من جسر الشهداء وحواري محلة الشواكة التي لم يبرحها قط حتى في منامه على ما يبدو. لكنه حين استيقظ راح يلفه إحساس قلق وشعور ثقيل

يتجول في داخله تعبيراً عن عدم الأرتياح لذلك الرنين الذي يتجول في رأسه ، فالشواكة تلك المحلة التي كانت يوما ما صاخبة فقطعها شارع حيفا بعماراته السكنية الشاهقة التي باتت تكتم عليه أنفاسه ، سوقها الذي كانت تتعالى فيه نداءات الباعة مختلطة بالتكبيرات والأدعية مع هديل الحمائم فوق الأشجار العالية و مآذن الجوامع السامقة ، راح يتخيل أحيانا حال الشواكة قبل أن تحجبها تلك العمارات كان يتباهى بأنها المحلة المشرفة على نهر دجلة وجسره العتيد وشواطئه الصاخبة المعانقة للنهر الخالد.

كثيراً ما أسف سالم لأن تلك العمارات قد خنقت محلته القديمة ، صارت نظراته فيما مضى تسكر بتفاصيل جولاته الحالمة في سماوات بغداد .

طالما حاول تحفيز مخيلته المدعومة بأساطيرَ نسجتها حكايات جدته التي كان يلتجيء اليها في مساءات مختلفة يلتقي بها مسحورا بحكاياتها ومبهورا بابتسامتها المشرقة والمملوءة بمشاعر المحبة ، ولطالما تمنى أيضاً أن تكون له أجنحة حقيقية ليطير بها عبر سماوات بغداد ، فوق نهر دجلة يراقب النوارس من علٍ وهي تراوح بأجنحتها المرهفة بين ضفتي النهر والزقاق الضيق الملتوي والمتفرع من سوق المحلة التي كان الصيف دوما يجفف أرضيتها المتعفنة .

10

لابد أنه أمر فضيع أن يكون المرء فاقداً لتلك القدرة على قراءة تفاصيل كل تلك المساحات الغامضة في داخله ، خصوصا اذا كانت تلك التفاصيل سحيقة في القدم ولو أن سالماً كان يَعيها ويتذكرها بدقة متناهية . لكنه كان يتنفس بصعوبة وهو داخل بيتهم ، لأن الشواكة كانت شواكة فعلاً حينئذٍ ، لذا كان يهيم على وجهه أحيانا قاصداً مقهى جابر على الشاطيء القريب من الجسر ، يجلس هناك يراقب اللاعبين لم يكن يشاركهم لعبة الدومينو ، يراقبهم فقط:

ـ دو .. يك

ـ يك .. سيه

ـ ليش ما تلعب شيش بيش ، ذب الجفت إخلص منه

ـ ألـــ (بول) كان دو .. يك ، ماذا أفعل لم يكن شيش بيش

ـ تحضير قبر آخر يكلف مائتي ألف دينار ، تصور الموقف

ـ ها .. شيش بيش

ـ لماذا تنقله الى مقبرة أخرى ؟

ـ المقبرة القديمة صارت في وسط المدينة طلبوا منا نقل موتانا الى مقبرة أخرى .

ما دام قد مات منذ مدة طويلة فلن تجدوا منه شيئاً.

ـ بنج .. دو

ما الذي يدور في ذهنك الآن ، إبتعد عن ذكر الموتى وقل لي ماذا ستفعل ؟

ـ جهار ..

ـ الذي يهمني الآن هو أني أتمنى أن أتزوج !

ـ يا رجل ، و لم لا تتزوج ، ما المانع من ذلك ؟

ـ أنت لا تتصور بأني ومنذ شهور أعاني من رغبة شديدة في أن يكون لي ولد ..

ـ قُفْلتْ ؟!!

هذا الحوار الذي سمعه سالم من بعض رواد مقهى جابر قبل قليل ذكّره بموعد عودة ولده أمل فأقفل راجعا الى البيت وها هو لا زال واقفا عند باب دارهم على عادته ينتظر عودته ، يعيد تلك الهلوسة التي أفضت به

الى الصمت ، بينما كان صوت زوجته ينبعث من داخل الدار يدعوه الى أن ينبذ هذه العادة وأن يدخل الى بيته.

حقاً إنها لازمة جديدة أخرى دفعتها أبواب ذاكرة سالم في تلك الظهيرة فالتوتر لديه قد وصل أقصاه حتى إنه عاد يذكر لزوجته أمورا ما عادت موجودة في زمانه فقد حدثها مرة بحماسة شديدة وكأنه يتحدث عن فيلم سينمائي شاهده للتو قائلاً :

ــ خرجتُ هذا اليوم القائض من المقهى وكنت أروم العودة الى البيت لكني وجدت صديقي ابن زريق يناديني لأركب معه في الكَاريات المتجهة الى مدينة الكاظمية وحين امتلأت بالمسافرين سارت بنا متهادية عبر منطقة الجعيفر واجتازت البساتين والحقول المحاذية لنهر دجلة حتى وجدنا أنفسنا بعد قليل في الكاظمية ، كانت سفرة رائعة يا سحاب لم أشاهد مثلها في حياتي .

دهشت سحابُ إذ سمعت منه ذلك حين عودته من المقهى ظهيرة هذا اليوم . بينما استمر هو في حديثه الغريب على اسماع زوجته:

ــ محطة الترام التي تبدأ منها الرحلة تسيّر العجلات التي تجرها الخيول على سكة الحديد ، عالمٌ مذهلٌ يا سحاب ، حين ناداني ابن زريق وطلب مني أن أرافقه في تلك الرحلة ، لم يكن في وسعي أن أرفض طلبه بل عدلت عن المجيء الى البيت ولبّيتُ نداءه ، إلتحقتُ به ، ركبتُ معه الترام ،

قضيت معه وقتاً من الزمن المنصوب في أرجاء كل المحطات التي مررنا بها وصولا الى الكاظمية ، تبين لي أن هذا الترامواي يحمل الناس لينقلهم من بغداد الى الكاظمية ، كانت سفرة من أجمل ما يكون ، حان الوقت يا سحاب لأخبرك بوضوح عما إذا كانت هذه المدينة التي هبطتُ أنا وابن زريق في إحدى ساحاتها هي مدينة الأمس أم مدينة اليوم ، فاعذريني إن كانت الجمل التي أنطقها الآن ماضية في غموضها ورماديّتها يا حبيبتي .

منذ تلك الحادثة التي رواها سالم لزوجته والتي طبعت على معالم وجهها ملامح الدهشة مما راح يرويه لها . هل كان ذلك حلماً أم حقائق يرويها عن زمن مضى ؟ قد تكون طرقت على ذهنه في هذه الفترة من حياته بعد أن صدمته الأحداث التي لم يكن يتوقع أن يجدها في بلده منذ أن عاد اليه ، تلك الصدمة كانت أعنف من أن يتوقعها إذ لم يستطع تحمل أوزارها وهو الذي روى كل شيء ممتع عن بلده لسحاب التي طاوعته وجاءت معه من بلدها المرفّه الغني صحيح أن زوجها قد حصل على وظيفة مرموقة هنا في بلده وأن إبنهم الوحيد (أمل) على وشك أن يدخل الجامعة ليتم دراسته وقد أصبح شاباً . لكنها وجدت في هذا البلد الذي قادها زوجها اليه خرابا ودمارا واقتتالاً فلم تستطع أن تجد فيه متعة الحياة التي توفرت لها في بلدها الأمريكي وهذا ما شعر به زوجها أيضا مع أنه إبن هذا البلد الأمر الذي أدى الى ما رأته من انحراف في سلوكه في الآونة الأخيرة ، وجدت أنه يسير

الآن بقدميه الى حافة الجنون وقد يسقط فيه لا محالة إن استمر على ما يرويه لها من أحداث لا تمت الى الواقع بصلة ، يرويها كأنها أضغاث أحلام وربما قد تكون تواريخ عاشها أو سمع بها أو قرأ عنها في زمن مضى .

سالم ، هو الآن قد وجد في ما يرويه متعة التخلص من الهواء الفاسد الذي ملأ رئتيه منذ أن عاد الى أرض وطنه تلك الأرض التي عرفت بأرض السواد فوجد فعلا بأنها عادت مليئة بسواد يعمش العيون ، وجد نفسه يعيش هذا الحلم القديم حتى إنه لم يعد قادراً عن أداء مهامه الوظيفية فقاده ذلك الى التغيب عن الدوام ، خصوصا حين بدت تصرفاته غير الطبيعية تظهر بشكل واضح فقد لاحظها عليه زملاؤه في العمل ، إنها علّة راحت تعبث بجسده .

رأى سالم بأم عينه الحدث الذي وقع صباح اليوم في شارع حيفا الملاصق لواجهة محلة الشواكة ، الأنفجار الهائل الذي أثار في نفسه الهلع وأعاد الى ذهنه كل ما شاهده في طريق الموت تلك المشاهد التي دعته الى أن يفرّ من بلده وينفذ بجلده الى أقصى بلاد الأرض . في هذا الصباح وجد الجثث تتطاير عالياً ثم تسقط هامدة محترقة على الأرض ، رأى السيارات المحترقة التي شبت النيران في أبدانها والناس في داخلها صاروا وقودا وهم مستسلمون طائعين حينذاك وفي تلك اللحظة لمح إبنه أمل وهو يساعد في إخلاء الجرحى ، حاول أن يندفع اليه اراد ان يحدثه بشيء يجول في صدره

لكن رائحة شواء الأجساد المحترقة منعته من ذلك خصوصا بعد أن تصاعدت عنده حمى الهستيريا التي تمتلك عليه كل حواسه فاتجه هاربا الى زوجته ليروي لها ما حدث بصوت مرتجف :

– يا سحاب ، يا زوجتي .. أين أنت ، أ لم تسمعي بما يحدث الآن ، لقد رأيتهم أنا بأم عيني ، إنهم الجوندرمة والأنكشارية قد فعلوا ما فعلوا قبل قليل وأنت واقفة في باب الدار ، ماذا تفعلين ، أ لم تعلمي بأن هؤلاء قد أحرقوا المدينة إحترق الناس في الشوارع والمحلات والأزقة حتى البيوت ، تطايرت الجثث الى عنان السماء ، رائحة شواء الأجساد ملأت الفضاء واحترقت العديد من الدكاكين وعربات المارة حتى الخيول التي تقودها صارت وقوداً لنيران جهنم التي رأيتها بأم عيني ، كل هذا وأنت واقفة هنا في باب دارنا ، ماذا تفعلين ، أ لم تعلمي بأن الجوندرمة قد قبضوا على العديد من الشباب الذين امتلأ بهم المكان ، كانت نار جهنم يا سحاب ورصاص الأنكشارية الخيّالة راحت تلعلع في كل صوب ، حتى ظننت أني قد أصبت بطلق ناري بعد أن شعرت بألم في رجلي ، لكني هرعت مع الناس الذين حملوا الجرحى على أكتافهم واتجهوا بهم الى الخستخانه كنت خائفاً يا سحاب و لم أفكر في الدخول معهم .. عدت ، نعم عدت اليك يا سحاب ، فأنت ملاذي الوحيد ، ملاذي الأول والأخير فقد ملأني الخوف والفزع .

– ما الذي تتحدث عنه ؟ و ماذا تقول يا سالم ؟ هل جننت ؟ أية جوندرمة وإنكشارية وخستخانة وعربات وخيول ؟ عمّ تتحدث يازوجي في أي زمان تعيش أنت ؟ ما هذا الذي ترويه يا سالم ؟ إن كل ما في الأمر أن عملاً إرهابيا أحدث انفجارا كبيراً قد وقع في شارع حيفا ، وهو أمر يحدث كل يوم قد إعتدنا عليه ، فمن أين جئتني بهذه الأساطير ، كل ما في الأمر هو أنك كنت على مقربة مع بعض أصدقائك فراح البعض يساعدون في حمل الجرحى وإيصالها الى سيارات الأسعاف ، وقد شاركت أنت نفسك في ذلك ، أ لم يكن الأمر كذلك كما رويتُه لك انا الآن ؟ فما معنى الأنكشارية والجوندرمة والخستخانة التي أخذت ترطن بها وتتحدث عنها ؟

– ومن الذي أخبركِ بكل ما ذكرتِهِ أنتِ الآن ؟ هل كنتِ قرب الحادث؟

– نعم ، كنت قد هرعت الى مكان الحادث بحثاً عنك وعن إبننا أمل وحين لم أجد أحداً منكما ، إلتقيت بعض أصدقائك من الجيران من أبناء الشوّاكة سألتهم عنك ففهمت منهم ما ذكرتُه لك الآن ، أخبروني بأنك كنت تساعد في نقل بعض الجرحى وتوصلهم الى سيارات الأسعاف ، أليس كذلك ؟ وكذلك كان يفعل إبننا أمل مع بعض شبان المحلة .

– أوه .. هذا ليس أنا يا سحاب ! لم أكن أنا الذي أفعل ذلك على وجه التحديد ، ذلك هو صديقي إبن زريق وقد ظنه الناس أنه أنا .. فأنا سالم يا سحاب ! هل اختلط عليك الأمر ؟

– أي زريق هذا الذي تتحدث عنه يا سالم ؟ أ ليس الرجل لا يزال في غربته في أمريكا فما هذا الهراء . ؟ أرجوك إبتعد عن هذه الهلوسة ، أنا خائفة عليك كما إنني خائفة منك .. تعال ادخل الى الدار واجلس هناك ولا تخرج ودعني أذهب للبحث عن إبننا أمل لأعيده الى البيت .

لم تمر إلا بعض ثوانٍ قلائل حتى دوّى إنفجار آخر في المكان نفسه فهرعت سحاب الى الشارع الى المكان نفسه يتبعها سالم ، دون أن تدري كان شعور الأم أن ابنها قد أصيب بأذى راحت تبحث بين الجثث كأنها تعلم أن جثة ابنها هناك ويهرول خلفها سالم ، وقعت فوق إحدى الجثث ، عرفته ، وضعت رأسه في حجرها ، ثم رفعت رأسها الى سالم الذي بدا كأنه تمثال من تماثيل الثلج دون أن ينحني أو ينبس ببنت شفة إلتقط من عيني سحاب نظراتها الحادة تلك ثم استدار بكامل جسمه تاركاً المكان بحركة رشيقة بدا وكأنه لم يكن يعنيه الأمر في شيء ، دون أن تعلم سحاب وجهته التي انطلق اليها .

عادت سحاب الى دارها مولولة كانت تظن أنها ستجد سالما قابعا في الدار ، لم تجد له أثرا هناك خرجت مرة أخرى تبحث عنه وحين يئست في البحث راحت تسائل الناس في المحلة فلم تحصل على جوابٍ شافٍ .

مر ذلك اليوم والذي بعده وهي تجلس في باب دارها دون أن تحاول الدخول فيه على الرغم من توسلات صديقاتها من بنات الشوّاكة ، كانت ترفض أن ترى الدار خالية من أهلها ، زوجها وإبنها اللذين فقدتهما معا في يوم واحد بل في لحظة واحدة ،

تهادى الى سمعها بعد ذلك أن زوجها قد اتخذ زاوية من زوايا مقهى جابر المطلة على دجلة قرب الجسر قابعاً هناك دون أن يفهم منه الناس شيئا حتى ظن الناس أنه قد فقد النطق حتى ملّ أصدقاؤه من مراجعته فتركوه جاثما على تلك الأريكة في مقهى جابر يتلقى ما تجود به أيادي جلاسها من طعام قليل وبعض السجاير يحرقها وعيناه تتابعان خيوط دخانها بصمت رهيب . صارت تلك المقهى مأواه الأخرس .

أما سحاب التي فقدت كل شيء بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، فقدت الولد والزوج وقبلهما فقدت الوطن ، لم يبق أمامها سوى أن تعود الى ذلك البلد الذي ولدت فيه بعد أن أضاعت من عمرها سنوات طوال مع عراقي مغامر رافقها الشؤم معه . ذهبت و لم تودع أحداً إذ ليس هنالك من أحد تودعه .

11

حين تسكن الكائنات الحية جميعاً ويخفت الضوضاء في كل مكان لم يبق سوى صرير الجدران الرطبة الذي يذكّر سالماً بكل شيء في وحدته التي استعصت حتى على الساعة المعلقة على جدران مقهى جابر التي ما فتيء يسكنها و لم يبرحها الا في قضاء حاجته إذ لا يبتعد عن جرف النهر ثم يعود الى مكانه على ذلك التخت المتهالك المتروي في الركن المنسي من المقهى وهو المكان الذي استغله أيضاً عبد الحميد صاحب صندوق السكاير ليضع صندوقه فيه حين ينتهي من عمله .

لم يبق امام سالم سوى أن يعدّ قفزات ميل تلك الساعة الذي خلت له الساحة بعد أن سقط ميلا الدقائق والثواني ، بينما بقي العقرب الوحيد الذي ينتقل من رقم الى آخر فتنتقل عينا سالم مع قفزته السريعة كل ساعة تمر يقفز سالم معه كالملسوع ثم يعود الى جلسته بينما تبقى عيناه مثبتتان في

وجه الساعة كأنه ينتظر دقاتها تلك الرّنة التي اعتاد أن يهز رأسه مع كل واحدة منها فيروح يحسب الرنات بصوت غير مسموع : دِنْ ، دِن .. واحده – دِنْ ، دِنْ .. إثنان ــ دِنْ ، دِنْ .. ثلاثة ، وهكذا مع كل رنة تهتز لها طبلة أذنه فيعتريه حينذاك احساس بالزمن الثقيل يجفل على إثره كما لو أنه واقع داخل فمٍ فاغر لوحشٍ مفترسٍ ضارٍ، لابد أن ذلك الأحساس بالوحدة لم يكن كثيفاً لزجاً فحسب بالنسبة له بل كان ثاقباً قاطعا كحد السيف .

إنتاب سالم شعورٌ بالتقزم فقد أضاف الى صمته شعوراً بأنه قد تحوّل الى قزم صغير ذلك أنه بدأ ينظر الى نفسه بأنه أدنى من حجم إنسان بل قد تضاءل حجمه في رأيه الى ماهو أدنى من عقب سيكارة ،إذ لاحظ عبد الحميد بائع السكاير ذلك منه حين رآه مرة وهو يضع إصبعه داخل علبة سكاير فارغة وأخذ يشير له بأنه يروم الدخول الى منزله وحين استفسر منه عن مكان المنزل أشار له الى داخل علبة السكاير الفارغة .

بعد أن تفقد سالم مأواه لاحظ فراغ المقهى من زبائنها في الداخل الأمر الذي دفعه أن يتجول بين مقاعدها ثم يعود الى صندوق السكائر يتفحص كل علبة ويتهجى بصوت غير مسموع أسماءها المكتوبة بالأنكليزية بخط أنيق غالباً ثم يعيد كل علبة الى مكانها في الصندوق الخشبي ، وحين

يمل التجوال يعود الى مكمنه قرب صندوق السكائر ثم يتناول علبته المفضلة التي اعتاد على ممارسة التدخين منها في غياب عبد الحميد .

حين رَنّتْ الساعة دقّاتها السبع وفُتّحتْ أبواب المقهى الثلاثة المُتسعة تَزَحْزَح سالم في مكمنه ليتسع المجال لعبد الحميد كي يحمل صندوق سكائره ويضعه في مقدمة المقهى ويجلس قربه يدفع بالعلب التي يطلبها الزبائن يُخرجها من مكانها ثم يناولها لهم ويقبض الثمن .

الأغنية التي يصدح بها صوت الراديو الجالس على الرف (يا مَدْلُولِه اشْبُكَه بعمري ..) إستهوت سالماً ، لم يستطع السيطرة على مشاعره فصاح .. ألله .. هزّ صوته أركان المقهى .. لأول مرة يصدر منه ذلك الصوت المدوّي الذي اهتزت له أركان المقهى وارتجف منه زبائنها ، رآهم سالم وهو في مأواه يتلفتون مبهورين وقد التوت أعناقهم نحو مصدر الصوت غير المتوقع من سالم الأخرس في نظرهم لكن صوته راح يعلو كأنه يجرب حنجرته بعد صمت طال أمده فترددده أركان المقهى ، إستهوته اللعبة حين اكتشف أن له صوتا يكاد يكون مسموعا وقد عاد ليجربه بعد ما يربو على السنتين من عزلته وخرسه ، الجميع تساءلوا مع أنفسهم .. هل يعني ذلك أن يكون سالم قد تخلص من ذلك الصمت المريع ؟ صاحوا جميعا .. إحكِ يا سويلم .. إحكِ بصوت مسموع ! لكن الدموع التي تدفقت أغرقت وجهه الذي بانت حمرته وارتسمت على محياه ابتسامة

خجولة بلهاء . تأكد سالم أنهم قد عثروا عليه .. هو مصدر الصوت إذا وقد أرهفوا أسماعهم فها هي آذانهم الآن تتلقف كلماته فعلا مرفرفة فوق رؤوسهم لم تزل ساخنة ، رأى الجباه وموجات التقطيب واضحة عليها وعلى الوجوه تتسع الأبتسامات ، لكن المرارة بقيت تلتصق بلسانه وبسببها راح يحدث نفسه : (أ لم أقل أن طيوري لم تعد تملك سوى جناح واحد كما هو الميل الواحد في ساعة حائطكم هذا .)

توهم سالم أن هؤلاء الذين يدورون حوله كأشباح باحثين عن مصدر الصوت متطلعين أمام عينيه ولما قرأوا ما فيهما أداروا وجوههم ناحية الطريق وواصلو الخوض فيه ، تلك هي عيونهم كأسطح بحيرات جامدة لم تهتز ، وفي عاصفة ظلمته التي خلفتهم تذكّر سالم الذي نادوه قبل قليل .. يا سويلم !!.. نعم تذكّر يوم كان له لسانٌ بأكمله وكان يتنفس بكل جسده ويَعُبّ الحب من رحابة زرقة دجلة ومن سهول العناق وهي تمتد وتتلاقى في المنخفضات المعشبة بالشوق وهي تغني للولد الواحد الصغير يوم قالت له زوجته سحاب :

ــ هل أحضرت اللعبة للولد ؟

ــ نعم ، ها هي يا حبيبتي ..

وصاح عليه ناداه : – تعال يا أمل .. فاستدار أمل مدليا ساقيه ليهبط من سرير نومه .

ها هو الآن يتذكر أيضا يوم راح يحل خيط تلك اللعبة التي جلبها لولده وكانت أمه منحنية خلفه وأنفاسها تدفيء عنقه وهو يلتقط هدية زوجته بعد ان اختطف امل لعبته من يد ابيه ، أخذت هي هديتها (القلب الذهبي) وملامحها الحلوة تتدثر بشيء من الغموض لكنها حين فتحت علبة الهدية كفت عن غموضها واستبدلته ببريق ملامحها المدهشة وقد فوجئا بأنهما معا في الصورة في إطار القلب الذهبي كأنهما ظِلٌ واحد يرتفع برأسين هي أقصر منه ورأسها يتطلع نحوه عاليا راميا بجدائل شعرها الى الوراء لكي ترتقي بعينيها ، وخلفهما يلمع فضيّا نهر دجلة ، وعيناها لا تزالان متعلقتان به كحمامة وديعة تتشبث بغصن يشب ويحملها من وجه العاصفة ، لم يكن سالم يدري حتى تلك اللحظة كيف حدث أن لاحظ ذلك التغيير في عينيها ، من أول ما عرفها وهو يرى ويقسم بأن عينيها زرقاوان وهو الآن يغوص خافيا نفسه تحت ذلك اللون الأزرق مع أنه الآن يكاد يسمعها تقول :

ــ آسفة يا حبيبي . لقد فاتني أن أحضر لك هدية ، لست أدري كيف نسيت أن هذا اليوم هو ذكرى زواجنا .

ضحك سالم ، لكي يهوّن عليها الأمر :

ــ كيف تقولين هذا .. طيب وهل نسيت أمل ؟

عندها أدار أمل خديه الحمراوين وعينيه الواسعتين الصافيتين :

ـ أنظر يا بابا كيف يغني طائري .. هل سيظل يغني هكذا دائماً ؟

ـ طبعا يا حبيبي سيظل يغني هكذا دوما !

إلتفتت هي إليه وهو يصوّبُ نحوها السؤال :

ـ أ ليس كذلك ؟

فأغرقته بضمتها وقد سمعها تردد سؤال أمل (الى الأبد) نعم (الى الأبد) !

ثم جابهته بالسؤال :

ـ كيف سيغني للأبد ؟

إنحنى سالم حينذاك على أمل :

ـ للأبد يا حبيبي سيغني لك.

وبصوت خافت قال لها :

ـ الطيور لا تحيا للأبد ، ربما لأنها لا تعرف الأبد ، لكنها ستظل على أية حال تغني طوال أبدها حتى ينتهي فتكف عن الغناء ..

هنا تذكر سالم أنه في تلك اللحظة رأى عيني سحاب قد اشتعلتا بالدهشة التي احترقت لحظة أن أدمنت تأملها ، لم تعودا كما كانتا دائما في عينيه لأنهما هكذا بكل بساطة قد نُسيتا في قاع دجلة .

لايزال سالمٌ جالساً القرفصاء كل ما مضى عليه من وقت بينما صوت المغنية هي الأخرى يتصاعد بجواره من الراديو المتربع على الرف فوق

الرؤوس لكن سالما يكاد يشم في صوتها رائحة احتراق طيوره وهي تندفع لتسقط وريشها مسودّ فيحترق هو لطيوره ويتعذب ويرغب في أن ينتهي كل ذلك ، لكن ذلك يستعصي عليه فلا يكف .. قال للمغنية التي لا يزال يصدح صوتها :

ـ أسكتي يا امرأه !! ..

لكنها لم تسكت ، لأن يده لم تمتد لتُسكت الصوت ، ربما لأنها أطاعت إحساسا يجري بأن مواجهة موتاه أرحم بكثير من التحديق بالآخر الذي يموت أمامه ، كما حدث أن حدق ذات يوم في الليل البعيد القابع حيث كان نائما آخر مرة ، كان نائما فيها بكامله .

الآن يتذكر سالم بوضوح أنه حين تقلب في الفراش ورفع رأسه كالعادة ليصغي الى تنفس أمل سمع السرير هادئا مع سكون تام ، أدار رأسه، خيل له أن الغرفة تتغير ، لم يكن يصدق أن النخيل سينصت بحس عال هكذا اليهم عندما وجد الظلمة تستميل الى ملاءة سرير خال ، أحس بأنه لا يملك القدرة على إدارة رأسه أو حتى التحديق بامعان الى جانبه ، أصغى أكثر فلم يرن في أذنه سوى صوت قلبه الذي أخذ يتعالى وهو يسمعه كموج يكاد يخنقه ، قفز من فراشه وانحنى على ولده أمل ، لم يجده تحت الغطاء إنكفأ راجعا فتعثر بالسرير ، لم يتأوه لأنه لم يكن ثمة وقت لذلك ، إندفع ناحية الباب وهو لايدري حين اصطدمت جبهته بحافته إلا

بعد أن أحس بها تنشرخ وتنغمس في لهيب من الألم جعله يصطدم بكل شيء كما الأعمى وهو يبحث عن القلب الذي كان يرى به في عماه ، أخذت عيناه تفران من قسوة اشتعال الغرف والشرفات الخالية والطرقات الغارقة بالضوء ، حدق في الطريق ، نسي اللهيب في جبهته ، أخذت كل المصابيح تنطفيء بعينيه ، تسمر في مكانه وراح يتلفت جيدا عله يعثر عليه، لم يعثر الا على الليل الذي استغربه لما وجده يفقد سكون سواده ليعج بأضواء الصمت التي تعمى تماما ، ثم فوجيء بأقدامه يشتد صراخها فوق أرض الغرف ودرجات السلم وأرجاء الحديقة وهي تمرع مقتربة منه حتى تكاد أن تعثر عليه ثم تتوقف فجأة في لحظة ما قبل أن تحتويه مصطدمة باللاشيء ، فيكف النداء الذي يتهاوى ساقطا مكانه مكوّما بلا أمل في النهوض .

كانت ثمة رغبة نائمة في العري كعاصفة يمكنها أن تُغرق كل الجزر التي جاء منها أمل الذي لم يتأكد سالم الى اليوم بأنه هناك ، والذي لا يعرف حتى الآن أيضا أين هو فقد كان ذلك ما جعل الرغبة الملعونة لا تهدأ وما زال لحد الآن يسمعها تزمجر عاضّة أسوار جسده الضيقة ، حدث كل ذلك ابتداءاً من ذلك اليوم المشؤوم الذي فقد سالم فيه سحاباً وأملاً ، ولم يبق أمامه سوى أن يرى خدّ أمل يشتعل كحريق يضيء دجلة ويسمع صراخه .. بابا .. بابا .. فتصرخ طيوره كلها ، ثم ينطفيء كل شيء عندما

تنفجر أضواء النهار لاسعة في مقهى جابر وزبائنها الذين يتصورون أن سالماً قد فقد صوته الى الأبد ، وهم لا يدرون أنه قد ابتلع لسانه الذي هو الآخر لا يريد أن ينطلق ليروي لأحد كل ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم الذي فقد فيه سحاباً وأملاً .

لكن صوت المغنية هو الآخر بدا محترقا هذا اليوم .. كما احترق صوت سالم .

12

في الظهيرة ينصرف ، عبد الحميد بعد أن يحمل صندوق سجائره ليضعه في الفراغ ، وفي ركن المقهى المعتاد ، يقفز سالم ليهبط على الأرض ، يحملق في عيني عبد الحميد فيضحك حين يرى كرة اللحم المتكورة في رقبته، تخلو المقهى فيسود الصمت يبقى وحيدا تكتنفه الغربة من كل جانب لم يبق معه سوى سعيد عامل المقهى ذلك البدين الذي يغفو هو قبل أن تغفو المقهى ، يتسلل سالم الى مكان ذاكرة سعيد ، يصعد اليها حاملاً فرشاة يستعملها عبد الحميد لتنظيف سجائره وإزميلا يستعمله الرجل ليحفر به مبالغ ديون الزبائن على الحائط ، يحمل سالم تلك العدة متجها الى لحية سعيد يلونها بلون البحر ، وقتها تلبي يدا سعيد نداءه فتهتز يداه أمام وجهه ، ثم يغادر سالم ذاكرة الرجل فيحمل الفرشاة والأزميل ويهبط الى عالمه يبحث عن زبائن جدد ، منذ يومين وسالم يستقر جالسا على التخت الذي خصصه له عبد الحميد ، يجلس هناك الآن وهو يفكر كيف تكون

لفافات التبغ هذه قبل أن تشتعل ، في الدقيقة الأربعين بعد منتصف الظهيرة يفهم اللعبة فيحاول أن يغيرها . ساعات أخرى تمر وهو يحاول أن يبحث عن تخت آخر فقد ملأت كراهيته كل مقاعد المقهى حتى انتشر دخان مقته للمكان ، بينما لاحظ بنفسه أن سعيدا عامل المقهى لم يملّ حتى إغفاءة الظهيرة هنا فمنذ اربعين سنة وهو يفتح برّاد الشاي ثم يغلقه ، إنه يهبط الى المكان في السادسة ويغادره في العاشرة في عبّ الليل ، هكذا يترقب سالم من داخل وحدته حضور سعيد وغيابه وهكذا يفعل مع عبد الحميد ، ويتفقد أيضا حضور الزبائن ، وها هو يتمنى حضور الجميع ليسألهم عن سبب كراهيته للمقهى .

حضر رجلٌ غريب .. مر داخل عامل المقهى بشاربه الأبيض وجلس فوق ترحيبه ، تطلع سالم الى حذائه البالي يجلس تحت المائدة القريبة منه فابتسم له وهو يطل من فوق مقعده ، ثم قفز من مكانه ليقبل يد الرجل ويعود وحين استقر لاحظ ارتعاشة شاربه الوقور ثم اختفى الشارب داخل صفحات جريدته ، يستمر بمراقبته ليعرف من هو ، كوب شايه تتصاعد منه رشفات السن المتقدم ، يقضم من جريدته سطراً بين كل رشفة ، ليس الآن وقت الحصول على معلومات أكثر عنه ، فتركه !

لم تتمدد في داخل سالم رغبة الفرار من هذا المكان ، خصوصا حين وجد متعة في تفحص زبائن المقهى أو من يدخل اليها ، حضرت دمية

عجوز إقتحمت باب القهوة المفتوح أصلا على مصراعيه للضيوف ، صاح عامل المقهى مُرَحّباً ، إنتحت العجوز ركنا في الداخل ، دمية مشوّهة الى حد الذهول أكلها الحصار ، إقتربت هي من ذي الشارب الأبيض لم تهتز جريدته ، مدّت يدها إليه أعطاها جملة قصيرة .. ألله يعطيكِ ، أخذت .. ألله يعطيكِ .. ثم عادت من حيث أتت .

في ظهيرة يوم ما استدار سالم الى ضفة دجلة خلع ملابسه على الشاطيء ، قرب شريعة الجعيفر ليكون قريبا من مقهاه التي تشرف على الشاطيء تماما ، نزل الى الماء أعمى بلا مجداف لكنه يعرف مسبقا انه ابنٌ لهذا النهر بصماته لاتزال مطبوعة على ظهره ، قبل وصوله الى منتصف النهر آثر العودة لأن زورقا راح يخبط في المياه خاف ان تندفع امواحه نحوه فتقذف به بعيدا عن المكان ، حين قفز الى اليابسة ببراعة لاحظ وجود بعض أصدقائه القدامى هناك يعدون مائدة على أرض الشاطيء ، تطلع باسهاب ، مَزّةً كانت على الفراش المبسوط على الأرض، بعض من الجاجيك مع فردات من الزيتون وأقداح بيرة زجاجية يخطف بريقها بصره رحبوا به دعوه الى مشاركتهم تناولها دون تردد تجرعها مختلطة بالجاجيك فصارت في فمه بلا طعم محدد ذات مذاق يثير الحيرة .

قال أحدهم .. تعال أعلمك السباحة ، وهو غارق في الضحك قال :

ـ أستطيع أن أعوم لوحدي فأنا ابن دجلة .

أزاح التردد جانبا ونزل الى النهر ، ليس كي يستحم فكر أن يهرب منهم ، حاولوا أن يجدوه فلم يفلحوا ، مع الجرف وبين الأحراش كان يسير، وحين غابوا فتش عن سرواله ولما لم يجده سار على طول الشاطيء باحثا عنه ، ثم وجده فاستراح .

في ضجيج يهزّ هدوءه ويبعثر رمال الشواطيء صار عليه أن يرفع رأسه ويواجههم ، تلفت حوله نسي كراهيته للمقهى مؤقتا ، أستدار وهو يبحث عن مخلوق ليحادثه فقد ملّ السكون وكره السكوت ، المقهى ممتليء بالأجساد المرمية على التخوت والدخان ينود في سمائها منفلتاً من أفواه جلاسها ، عثر في طريقه على جسد غافٍ يتكيء فوق مقعد ينوء بحمله ، فكر أن يوقظه كي يناوله سيجارة بلا ثمن يدخنها فينتعش حينذاك يستطيع أن يحادثه ، وقبل أن يفعل هدر العجوز عبد الحميد وألقى بكوب الشاي الذي أمامه فوق وجه الكآبة ، تناثرت الشظايا وصار على الجميع أن يجمعوا النثار ، همّ سالم أن يبدأ بالمبادرة لكن سعيداً عامل المقهى البدين كان أسرع منه فقد غادر موقد المقهى وسخطه يتقدم خطواته ، جمع بقايا الزجاج المكسور ثم عاد الى مكانه هادراً ، راقب سالم الغضب ملياً داخل العجوز عبد الحميد من حركة في داخله ، لم يأبه بتصرفات عبد الحميد بل ارتد بخطواته الى الخلف تراجع عائدا الى مقعده وراح يحدث نفسه .. غدا سيارة الموتى سوف تحمل عبد الحميد هذا الى مقبرة الشيخ معروف القريبة

وسأقتحم المقبرة وأهشم الصندوق وأبعثر علب السجائر وأعود الى المقهى أدوس كل أحذية الرجال التي تدوسني الآن أندفع الى رمال شواطيء دجلة وأتمرّغ فوقها حتى غروب آخر يوم من عشر سنوات قادمة .

صار من عادة سالم بعد الآن أن يجلس على باب المقهى قرب بائع الحلوى الذي سمع شخصا يهمس في أذنه .. إنتبه الى بضاعتك ، الصغار العابرون يسرقون الحلوى .. إندفع سالم خلف اللصوص الصغار يطاردهم، لما عاد لاهثا دون جدوى وجد عامل المقهى يهز جسد صاحب الحلوى النائم الذي يغادر المقهى في الحال كي يموت .

عاود سالم التفكير في أمر طاريء من الأمور التي لم يتبين حدوده بعد ، حين أزعجه تصفيق رجل دخل المقهى للتوّ إلتفت اليه : أعور ، يحمل فوق ذراعيه أرطالا من الملابس المستعملة وهو يصفق للسقف ليفتح له طاقة يتساقط منها رجال عراة يكسوهم بما يحمله .

سالم ، هو الآخر به حاجة الى بعض ما يحمله سيهبط اليه من مثواه لكنه لم يفعل لأنه أيقن أنها ليست على مقاسه فهي مصنوعة للكبار إذ ليس للأقزام منها نصيب .

جفل كوم العظام الذي يحمله عبد الحميد من وقع ضربات الكف التي حررها الأعور ، تصفيقه هذا أجفل عبد الحميد فوقعت سيجارته من فمه في كوب الشاي ..

ياه .. الأعور .. وكوب الشاي المكسور .. وكوم العظام عبد الحميد .. والرجل ذو الشنب الأبيض .. والملابس المستعملة .. وكرة اللحم في مؤخرة الرأس الصلعاء .. وبائع الحلوى واللصوص الصغار .. والأدهى من كل ذلك ، صندوق السجاير .. هؤلاء مخلوقات لحظات سالم بامكانهم أن يستبدوا به كما يشاؤون ، والساعة الواحدة والأربعون تقترب تلك ساعة الأنتظار متى يحين ستينُها إنها تدُبّ فوق أرضه وعظامه حتى فوق أعصاب علب السجاير في مأواه الباهت . مع ذلك لم يفِرّ بعدُ ..

في أقصى متاهات نظراته الغارقة في البحث عن وسيلة للفرار لمح رجلاً مقطوع الساق يتلصص على حيرته ولما همّ الرجل بالأمساك به حاول الأختفاء ومع ذلك أمسك به ، قال إحذر لا تلمس ساقي المقطوعة فقد تندم لأنك سوف تدخل بدلا عني ، فأنا خارج توا من سجن بوكة .

مدّ الرجل يده وفتح ستارة ، رآه سالم يسير خلفها في زمن مضى يحمل لفافة وساقه فوق كتفه والحيرة فوق الوجه ، وهو يحاول عبور قضبان البلد، صاح سالم من داخل مأواه الأخرس ، إسرع واعبر القضبان ، لكن الذي أغاض سالماً تلكؤه ، فلم يفلح .

ما عليه الآن إلا أن يفرّ ، فدقائق الثانية والأربعين تقترب متوهجة ، عاد الى مقعده يائسا ليرى شابا يدخل المقهى من بابه الواسعة ، كان الشاب

يغطي وجهه بنظارة داكنة ، بدا عليه أنه يبحث عن شخص بعينه إبتسم سالم له ، فتجاهله ، أمسك بيده :

– أ تريدني ، خذني معك ، أريد أن أنصرف !!

لم ينظر اليه باديء الأمر، ظل يتجاهلة ، هل يعض يده ليثير اهتمامه إعتقد سالم أنه يستطيع أن يتسلل الى جيبه فيحمله معه لكنه لم يستطع أن يفعلها بالطبع ، أشار الرجل الى عبد الحميد :

– أنا لم أحضر من أجلك أنت ، حضرت من أجله هو ، سنتان كاملتان وأنا أحاول أن أحظى به فيستعصي عليّ ، أنت أسهل منه بكثير ، في يومين استوليت عليك دون أن تشعر وكتبت إسمك في دفتري .. أنظر. بصق على الأرض قبل أن يطبق على يد سالم ويسحبه معه الى خارج المقهى ، راح الشاب يمشي مترنحاً وسط الطريق ، إستوقفهم البعض وسط الطريق.. الغريب أن سالما قد سمع واحدا من اؤلئك الذين استوقفوهما يوجه كلامه اليه قائلا :

– ناولني بطاقتك الشخصية ..

لم يكن يرى الشاب الذي يسحب سالماً معه ، مرت هنيهة ساكنة أخذ ذلك البعض من الرجال يسحبونهما عنوة والشاب مطبق على يد سالم لا يكاد يتركها وسط دهشتة دون أن يدري الى أين .

13

الأنسان كالعادة يظل قزماً طالما هو مبني خارج نقسه ، لذا فأن سالماً الآن يمضي متكئا على حافة الزمن كلتا يديه تمسكان الآن يد الرجل بقوة كي يتيح لناظره التطلع الى ما حوله وهو لا يزال ينقاد الى حيثُ لا يدري، السائرون في الشوارع التي يقطعونها يخجل سالم من طولهم ، إمتلأ إحساساً بأنهم عمالقة ، هكذا كان خياله يلعب بوجدانه دون أن يعلم الأضواء التي تتنفس على المباني وتنبض على وجوه الحيطان جعلته معلقا بالتوتر. وبالشوق المشدود في صمته ، إضافة الى أنه خائف الأن من بعض الناس الذين جاؤوا بآلات التصوير ليلتقطوا بكاميراتهم صورا لذلك الجاني ، وهو يتطلع اليهم ويتألم بسبب السواد اللامع والفلاش المنتظر الذي يكاد يطفئء انوار روحه ، ويتألم أكثر حين يرى الكاميرات تسجل صفعات اولئك الذين يقودونه ، بلا لون ولا ضجة تنسحب دقات قلب سالم من تحت أسوار الزمن كي تتنفس ببطء ، عيناه لا تزالان تشتغلان في البعيد تحت شلالات الأضواء فوق أمواج دجلة ،

الأمواج تأتي وتكبر ثم تفقد حدة العتمة حين يفاجأ به ، نعم يفاجأ بأمل فوق الموج فيفرك عينيه وهو يقسم لنفسه بأنه قد عرفه إنه وجه ولده من هذا المكان وهو على أمواج النهر يسير ، يهرول ، فيتحسس ملامح وجهه بكلتا يديه ، دافئة عيناه يراها بوضوح فتتزلق يداه مداعبة خصلات شعره الشمسية اللون ، رغم العتمة ما زال سالم يصدق حتى الآن أنه لم يرَ زورقا يمتطيه أمل إنه يمشي فوق الماء وهو يرى الآن بكل وضوح أصابع قدميه والضوء يغسلها فتلتمع، ظل يحيطه بحدقتي عينيه ويسمع صوته الذي يحترق مخلصا فيصدق نفسه ، لكنه لم يعد يصغي تماما الآن لأنه ينقاد الآن بعنف مع اهتزاز صاحبه ، ولأن التحديق في ذاته إصغاء يسمع من خلاله قدوم أمل والزمن سلاسل تتحطم من حوله ، وولده آت ، وهو ما يزال يستسلم للذهول حتى غاص في التذكر ليعثر في وسط الخضم على الصوت الذي ينبثق غامضا كالميلاد صغيرا مفضّضاً متسعاً ، رافعاً أمام وجهه هامة من الكبرياء الحافل بالملامح المتألقة بقوة حتى أن عينيه أصبحتا لا تطرفان ، ساكنتان تتعذبان بالرؤية فقط والطفل في ظلال وجهه يحدق به دونما أنين يصطدم فقط بالعالم الذي كأنه بدأ الآن في تحطيمه إذ مازالت أمواج دجلة تأتي والصوت المكتوم يتناثر صانعا بحيرات نقية على قدر أفواه الطيور الصغيرة المدببة التي كانت تسحره برفيف أجنحتها وهي تحيط بولده الآن من كل جانب ترفرف مزقزقة بصوت يتزلق صوب الشطآن الخضر حاطّاً على البحيرات ثم طائرا معانقا ينبوع الصوت في شفتيه ،

بحيث ارتوى سالم بالفرح وهو يستقبل الموجات الآتية بالضوء حتى عادت قريبة جدا ثم تلاشى الأصغاء فأصبح لا يرى سوى إبنه فقط والموجات خلفه لا تتوقف عن الأتيان به ، تغالبه الأبتسامة ظنا منه أنه سيُخبّؤه في فراشه وينامان معا بقية العمر، حتى إنه قفز في مكانه قفزات متتالية في محاولة لاختطاف ولده لكن رعدا من الهرج انطلق كسياط بطول الظهر وهو يتذكر فجأة بانه لايزال مقيدا بالرجل الذي يقوده ، إذاً فهو لن يستطيع أن يصل الى ولده ليصفع كل الذين حوله، لم يعد يملك الآن إلا أن ينظر في عيني ولده ويبكي من أجله بصمت وهو يرى عينيه تهتزان في مرح مثل نوارس دجلة ، ساعداه الآن مشغولان مصلوبان مع ذلك الرجل .

عاد سالم الى خيبته .. نظل نعبد الله ونموت ونحن نعبده لمجرد أننا قطعنا عهدا ونحن صغار ..

هو الآن لا يملك سوى أن يتأمل ملامح ولده فيخاطبه : '' أ تذكر يا أمل حين غرست في عينيّ شعر رأسك وأنا أتأمل ملامحك وأُضمّنها رؤياي بحثا عن ملامح دجلة التي غاصت الآن كضوء نجمة تحترق ، فلماذا نتغير بسرعة إذاً .. ''

كم كان سالم يعشق هذا العالم ، وكم كان يتمنى أن يبقى فيه فرحاً ، كان يعشق حتى وقع خطواته في شوارع بغداد لم يكن يشعر بالغربة مطلقا في درابين الشواكة ، وحين دخلت زوجته سحاب وابنه أمل في حياته إرتوى

تماماً من الأحساس بأنه أصبح يملك عاصمة الأمبراطور ، وعرف يومها معنى أن ينتصر الأنسان .

للآن يتذكر سالم كيف كان يأخذ إبنه في حضنه وذراعاه لا يتركان من كل جسده رقعة لم تتغط . وطالما كان يصرخ في سره .. لماذا تركتني اليوم يا ولدي' تركتني وأنا أرثي لكل الطواغيت الذين علقوا فوقنا قفا الشمس لأن وجهها الحقيقي كان وحلاً يخوض في عهر الليالي المهزومة"..

أدار وجهه صفعته الأرض حين تعب من التحديق ، عاد الى العتمة المقيتة في داخله لم يجد سوى نكوصاً مُضنياً بعد فقدان الأمل بأية فرصة للنجاة ، كان يروم التخلص من نتانة تلك المقهى ومن وساخة روادها ، من السجن الأنفرادي على تلك القنفة الخشبية التي أكلت جسده وحين اعتقد أو تخيل أن الشاب الذي جاء بنفسه باحثاً عنه سوف ينقذه مما هو فيه وسوف يأخذه ليجوب به العالم ، يُخرجه الى فضاء الله ، ظن أنه سيعيده الى محلته ، الى الشواكة التي كان حظه أن يولد فيها ويعيش فيها أغلى سنوات عمره قبل أن تأخذه تلك الجلسة القرفصاء التي ظن أنها قد دفعت به الى الشعور بالتضاؤل المقيت الذي إعتبره مَسْخاً لشكله وهيأته ويأسف لأن ذلك لم يمسخ إنسانيته فقد بقي إنساناً يتمتع بكل مشاعره التي راحت تعذبه في أغلب الأحيان فقد ظل يغوص في لجج الذكرى ويحن الى الماضي وطالما كان حين يعود اليه وعيه فيحدث نفسه : (أيها الماضي لا تستعصِ إنهض في مخيلتي دوماً كي أبقى

أعيش حياتي التي لم تفنَ في مخيلتي ، لم يبق لي سوى أن أعيش فيك ، ألازمك قبل أن تموت أنت أو قبل أن أموت أنا أو ربما أعود أحجل على قدم واحدة بين الشواكة ومرقد الشيخ معروف وأؤمّه يوم العيد حين تقام على أديم أرضه أحلى أعراس الكون بنا نحن أطفال الشواكة والدوريين والجعيفر والرحمانية ودور السكك والعلاوي ، معظم أطفال الكرخ مرة واحدة أجدهم على دواليب الهوا وأراجيح العيد تعانقهم مآذن مرقد الشيخ معروف ، وحين تبدأ الصفحة الثانية بعد منتصف نهار العيد يتجه معظم جمهورنا الطفولي نحو سينما قدري لنقضي بقية النهار نتطلع بشغف الى عروض الأفلام فيها نتقافز عل مقاعدها الخشبية التي يتحطم معظمها تحت وطء اقدامنا و، حين نستهلك قوانا ويأخذنا التعب والأرهاق نعود الى مقاعدنا بعد أن تبهرنا أصوات بنادق رجال الفايكنغ يتناوشون بعضهم في معارك دامية عبر سفنهم الشراعية في وسط البحار ومياهها العميقة ، وحين يأخذنا الرعب نجر أجسادنا المنهكة كل الى محلته مع غروب نهار العيد .)

الشاب الذي يقود سالما معه يحاول الآن أن يتحسس وجوده معه يتلمسه بكلتا يديه اللتين تقيدهما الجامعة الحديدية ، يكتم سالم أنفاسه حين يحس بضغطة يده وهو لا يزال ينقاد عبر شوارع المدينة ، لكنه لايدري الى أين !!.

14

أسئلة ثم أجوبة ، صفعات على الوجه ، أعقبتها كبلات على القفا وركلات بالأرجل ، والشاب ينقاد معه ويقوده وهو يهتز مثل سعفة في مهب ريح ، بينما يتلوى سالم فينقذف من ركن الى آخر ملتصقا بذلك الشاب الذي لا يدري الى أين قد قاده وهو لا يدري أيضا أن الشاب نفسه لا يعرف الى أين سيأخذه هؤلاء الذين قيدوسالما وهم الآن يسحبونه عبر شوارع المدينة والى أين يتجهون به حتى انه لا يعرف عنوان الجريمة التي ارتكبها بحيث يتحمل كل هذا العناء بسببها حتى ان ملابسه قد مزقتها الأيدي التي تناولته من كل جانب ، وسالم هو الآخر يطاله الشيء الكثير من ذلك العذاب دون ذنب يذكر أنه قد اقترفه ، إضافة الى العذاب النفسي وهو يرى ما يتحمله هذا الشاب الذي أراد أن ينقذه من سجنه الطوعي في تلك المقهى والجلوس على ذلك التخت الذي أكل الكثير من عمره وسرق نصف عافيته وهو يسمع الآن صرخاته وأوجاعه ، بينما صاحبنا لا يملك الا أن يحدث نفسه : '' أيها الحبيب أرجوك أن تتحمل من أجلي كن أقوى مما أنت عليه ، ماذا سيفعل بي

هؤلاء إن مزقوك أو قتلوك ، كيف سأواجههم إن أنت لفظتني وظهرتُ أنا أمامهم ، أرجوك أن تساعدني كي أجد مكانا آخر أنزوي فيه .''

الغريب أن سالماً لا زال يلتصق بذلك الشاب الذي اقتاده بأرادته ورغبته من مأواه الأخرس الى الشارع ليخلصه مما هو فيه كما ادعى ، لكن سالما يفكر الآن أن هؤلاء العتاة لابد أنهم يقتادون الرجل الى السجن فالمشهد الواضح أمامه يؤكد ذلك ، هو لم يزر سجنا حقيقيا في حياته ، هل السجن يشبه مقهى جابر التي سجن فيها ردحا من الزمن أم ان السجن الآتي مختلف ، راحت مخيلته تعرّف السجن بانه مكان ذو اربعة حيطان له باب حديدي وقد يعلق على حائطه شباك هو الآخر من الحديد طبعا ينتصب في مكان عال من احد تلك الحيطان الأربعة ، صور انطبعت في ذهنه لكنها كانت مرعبة باديء الأمر بحيث فكر انه في كل الأحوال ستنطبق عليه كلمة سجين ، هذه المفردة ستبقى تلازمه مادام حيا بل انها ستلازمه ايضا بعد الموت ، أ ليس القبر سجنا مؤبداً ، أ ليس للأنسان حياة محدودة النهاية إذ ليس له (أبد) . لكنه قد يفكر بأنهم يقصدون أن يحيا الأنسان حياة أبدية في قبره.

لكن القبر الذي صار هو اليه الآن قبرٌ حيّ ، مسكن اشبه بالكهف مدخله الذي يمتد الى أعلى يواجه ضوء النهار والناس الذين يقيمون فيه ما هم الا ركام يتحرك تحت الأرض ، إعتقد سالم أنهم يعيشون هنا منذ الطفولة مقيدة سيقانهم ورقابهم بالسلاسل والأصفاد وهم ساكنون في مواضعهم لا يملكون

الا أن ينظروا الى الأمام شاخصة أبصارهم عاجزون عن فعل شيء ما لكنهم يستطيعون أن يبصروا نورا يأتيهم من الأعلى البعيد كأنه لمعان من نار تشتعل ، أما سالم فهو بينهم الوحيد الذي يملك حريته الآن إذ لم يكن مقيدا بتلك السلاسل ، السجناء لم يعجبوا من ذلك لأنهم بكل بساطة لم يكونوا يرونه فقد غيبه الشاب عنهم كما كان يفعل حين كان يقتاده في الشارع حتى أوصله رجال الأمن الى هذا المكان ، لقد تأكد أنه في هذا المكان سويلم فعلا ، ليس بمقدوره الآن أن يعود سالماً كما كان ولا يعتقد ذلك لأنهما هو وصاحبه يقبعان في هذا السجن بانتظار ساعة الحسم ساعة محاكمة صاحبه الشاب الذي تورط معه في سجنه ، تأخذه الدهشة أحيانا بل يأخذه الفضول أيضا الى معرفة سبب إلتصاقه بهذا الرجل الشاب والذي يثير فضوله أكثر ، أنه حين ينظر اليه يجده يشبهه تماما في كل تفاصيله وشكله وهيأته فيأخذه العجب لذلك كثيرا لكنه لا يملك أن يسأله لماذا هو يبحث عنه ماذا كان مقصوده من ذلك . فمتى تحين الفرصة ليسأل و يتأكد من كل ذلك ؟.

المسكن الجديد الذي يسمى السجن ، صورة لمكان الأقامة الذي يمتليء بأعين من ينظرون اليه ولكن لا يرونه اولئك السجناء الذين تتوهج خلف ظهورهم أو أعلى منهم بقليل صورة الشمس التي تسطع في الخارج وهم يتصورون قبة السجن أو سقفه الذي تتطلع اليه عيونهم يتصورونه قبة السماء المزدانة بالقمر والنجوم بسبب الأبد الذي جعلهم يمكثون طويلا هنا، إذ تحت

تلك القبة يحيا الناس مقيدين الى الأرض ، إنهم يحسون أن ما يحيط بهم هو الواقع وأن ما يرونه هو الحق ولا وجود إلا الوجود الذي يرونه حولهم ولا الحقيقة الا ما تلمسه أيديهم ، ففي هذا المكان يشعرون أنه العالم الذي يقيمون فيه مطمئنين فلا أشياء خارج هذا العالم إذ لابد للأشياء إن وجدت أن تنعكس ظلالها على حائطه . هكذا كان يتصور سالم الشعلان ذلك المسكين الذي لم يعد يملك الواقع ولا بد أنه قد عرف حقيقة ما يجري لن يخطر بباله الآن أن هذا الواقع ظِلٌّ ، وأن تلك الحقيقة خيال ، أنّى لسالم أن يعرف شيئا عن تلك الظلال التي تنبعث من النيران التي تشتعل في داخله أو عن الضوء المنبعث من تلك الشمس تنجلي بنورها الأشياء والكائنات خارج السجن ، بين النار المشتعلة فيه وبين النور الذي يغير الأشياء من حوله بين المساجين المقيدين بالسلاسل وبين البشر الأحرار ، بين الموجودات خارج السجن وبين النار المشتعلة في داخله ، إنها روايات لأحداث جرت داخله مرة وأخرى خارجه .

ليس هنالك شيء يربط الجميع بالعالم الخارجي إلا سالم الذي تربطه تلك الظلال الصامتة التي تنعكس في داخله تأتيه من عالم خارج هذه الأسوار ، أما هم فانهم يستيقظون وينامون على الأشياء التي تحيط بهم ، وهم يأخذونها معهم ايضا في أحلامهم ، وهم يتحدثون إن تحدثوا عن الظلال التي تهيم

أمامهم ولا تكاد تثير فيهم أثراً للدهشة أو السؤال ، لن يعتقد هؤلاء المساجين أن هنالك شيئا حقيقياً غير الظلال .

على حين غرة وجد سالم حين استيقظ من نومه القلق الطويل ان السجناء بما فيهم صاحبه يستطيعون الآن أن يحركوا رؤوسهم وأقدامهم كما يشاؤون على الرغم من انهم ما زالوا أسارى حيطان غرفة السجن ، لكن صار بوسعهم أن يلتفتوا الآن الى ما لم يكونوا يلتفتون اليه ، صحيح أن عيونهم ما زالت ترى الظلال المنعكسة على الجدران واجسادهم لازالت ترتعش من الرطوبة المنبعثة من الأرض لكن في مقدورهم الآن ان يشاهدوا النار التي كانت تستعر في دواخلهم تشتعل الآن خلف ظهورهم .

إستراحت عينا سالم قليلا من تلك الظلال وتعرّف على وجوه المساجين معه ، عرف أن هنالك مصدراً للضوء الشاحب الذي كان ينسكب على الأشياء ومنه تلك الظلال القاتمة التي كانت تتراقص على الجدار ، لم يكن مصدر الضوء ذلك الا المصباح المعلق في السقف الشاهق في غرفة السجن .

حين تحررت العيون من الظلال إستطاع سالم أن يقترب من الحقيقة أكثر مما كان يرى ، حين كبرت علامة الأستفهام أمامه وظهرت بحجم السماء قائلة:'' ما الذي يمنعك من اكتساب حريتك الآن ؟ أي قناع هذا الذي يَغشي عينيك ؟ ما الذي يمنعك من أن تنتزع سويلم من صورتك كي تعطي للناس صورة سالم صيهود الشعلان ''

لكن النار المشتعلة على ضعفها واضطرابها لا تزال ماثلة وهو برفقة صاحبه الشاب الذي هو الآخر قد تحرر فعلا من سلاسل الحديد لكنه لم يتحرر من قيود الحساب التي تنتظره .

صعد الآن السجين صاحب سالم على الطريق كما نقول ، الى الحرية ، مع أن كل شيء الآن لم يكن واضحا أمام سالم وضوح النهار ، صحيح أنه يدري بأنه المأهول بواحد من أبناء آدم أو بما يعرف أيضا بواحد من البشر وهو ينتقل معه الى الحرية الآن بمجرد أنه يرى المكان قد اتسع وأن ضوء الشمس صار يغمر كل ما هو موجود فقد اختلف شكل الأشياء عن شكل تلك الأشياء التي تضيئها النار الأصطناعية المنبعثة من ذلك المصباح الوحيد المعلق في أعلى سقف غرفة السجن . لكن ، هل يعرف السجين وصاحبه اللذين تحررا الآن الى أين هما ذاهبان ؟ إنهما بكل بساطة في طريقهما الآن الى القضاء ليقول كلمته وقد تنجلي الحقيقة هناك .

الغرفة التي إندفع الى داخلها صاحبه الشاب لم تكن متسعة بما يكفي ، طاولة واحدة وثلاثة كراسي ، يجلس على أحدهما رجل مهيب بلباس مدني ، يجلس منتصب القامة واضعاً يده على كومة أوراقٍ ناصعة البياض وفي اليد الأخرى قلم مهيأ للحرث في أوراقه ، دفع كومة الأوراق والقلم الى الرجل الثاني الجالس قريبا منه ، إذ يبدو أن الرجل المهيب ذاك هو الذي قد هيأ نفسه لعملية التحقيق فقد أظهر قناع الصرامة على وجهه المتجهم أصلاً .

الغرفة الصامتة ذات الشباك الوحيد المغطى بستارة لا يعرف لونها ، والجدران النظيفة المدهونة باللون البني الفاتح والناصع معا تبدو خالية لم تحمل على صفحاتها شيئاٍ.

كل ذلك كان مصحوبا بصمت يدعو الى الملل والضجر ، فرصة الصمت هذه منحت سالماً الوقت الكافي ليصف لنا ما استطاع أن يصفه قبل قليل ، يبدو الموقف هادئا الآن وكل شيء مهيأ للبدء لم يكن سالم يعرف الجريمة التي سيبدأ القاضي بطرح الأسئلة على صاحبه الشاب حولها كما يظن هو ، وربما لم يكن الشاب يعرف شيئا عن جريمته التي اقتيد من أجلها ، فكر سالم بأن الجريمة ربما حدثت قبل دخول الشاب الى مقهى جابر وجاء مندفعا كأنه يعرف سالما منذ أمد ، وعرف سالم أيضا حينذاك أن الرجل قد جاء أصلا الى المقهى باحثاً عنه حتى أن عبد الحميد بائع السجائر توسل اليه في أن يأخذه معه لكنه رفض مؤكدا بأنه لم يأتِ الى هنا إلا من أجل أن يأخذ سويلم ، وقد قالها بصراحة بأنه قد جاء من أجل هذا المسكين الذي كم تمنى أن يلتقي به ليحدثه بكل الحقيقة ، يحدثه بما حدث فعلا ، حينذاك قد يستفيق الى نفسه ويعود الى ما كان عليه ، يعود" سالم ، إبن صيهود الشعلان ‘‘ لكن هؤلاء الذين اقتادوهما الى السجن قد أفسدا عليه فرصة التعارف بينهما وفرصة أن يشرح لسالم ما لديه وما هو فيه ولماذا كان يبحث عنه.

يبدو أنه لم تكن قد حانت الساعة التي ينبغي أن تبدأ فيها المرافعة الا بعد أن ينتهي المحقق من تدوين بعض الأسئلة في الورقة التي أمامه ، وحين اكتمل كل شيء راح القاضي يحدق في وجه الشاب قائلا بصوت جهوري: –

– ما اسمك .. ؟

حينها فزّ الشاب رافعاً رأسه مبدياً إستعداده الواضح للأجابة عن السؤال الذي صفعه به القاضي :

– إسمي .. أمل بن سالم صيهود الشعلان .. سيدي !!

15

صُعِقَ سالم كاد يسقط على الأرض إنتابه ذهول لأنه يعرف أن سؤال المحقق كان موجها اليه فكيف سبقه الشاب وأجاب عن نفسه ، راح يتخبط ويداه ترتجفان إمتدت يد صاحبه اليه تتلمس جسمه لاحظ أن جسم الشاب يلتصق به يتمدد في ثنايا جسمه حتى صار بكامل قامته جزءاً منه ، وجد نفسه يقف وحيدا في قفص الأتهام . فاضطر أن يعيد الجواب على مسامع القاضي :

'' نعم ، أنا سالم '' وهو يردد مع نفسه '' إبن صيهود الشعلان '' .

لم يقتنع قاضي التحقيق بالجواب بسبب الأرتباك الذي حصل فأعاد عليه السؤال :

– قلت لك ما اسمك ؟.. أريد جوابا واضحا دون تلكؤ ..

– نعم سيدي أنا .. سالم صيهود الشعلان .. وأمي جوريه بنت جواد الـــ ..

– كفى لم أسألك عن اسم أمك ، أجب على قدر السؤال .

صار سالم يجلس بكامل قامته أمام المحقق وقد قوي بصره واستقوت بصيرته أمام قاضي التحقيق الذي لم تبدُ عليه الدهشة مطلقا لأنه فعلا كان يرى صورة

سالم الشعلان الحقيقية أمامه كما هي الصورة في الملف الذي بين يديه ولم يكن يرى شخصا آخر معه ، وحين وجه السؤال في بدء جلسة التحقيق كان متأكداً أن الذي أمامه هو سالم الشعلان .

الآن فقط تأكد سالم بنفسه من هو الشاب الذي كان مرتبطا به ، لكن كيف حدث ذلك ؟

كان أمل حين حدث الأنفجار في شارع حيفا قد مات أمام عيني أبيه وفي حضن أمه وهو المنظر الذي صدم سالما ، كانت صدمة عنيفة لم يحتملها الرجل فقد أخذ يهذي وينفلت مهرولا حتى استقر في ذلك الركن من مقهى جابر دون أن يبرحه الى أن أتاه ذاك الشاب الذي طاوعه وخرج معه وحدث ما حدث ، فمن هذا الأنسان الذي صاح بأعلى صوته قبل قليل بأن إسمه '' أمل سالم الشعلان ''

قبل أن يعود سالم الى هيأته وتنفرد قامته من جديد وقبل أن يختفي ذلك الشاب عن ناظريه وقد همس في أذنه قائلاً : سوف تخرج من هنا يا أبي وستعرف مني كل شيء حينها ..

إعتدل المحقق في جلسته متسائلاً :

ــ في بداية الجلسة سألتك عن إسمك يا سالم فأجبتني أن إسمك أمل سالم ... فكيف اتفق لك هذا ؟ ومن هو أمل ؟

– أنا أعتذر منك يا سيدي فأنا سالم الشعلان ، أما أمل فهو إبني الذي توفي في حادث إنفجار شارع حيفا المواجه لمحلة الشواكة المحلة التي فيها بيتنا وقد قضى ولدي أمل في ذلك الحادث الذي أدى أيضا الى هروب أمه عائدة الى بلدها ولم

أستطع أن أبقى أنا وحيدا في دار غاب أهلها فهربت أنا الآخر الى خارج نفسي أولا ثم الى ركن غير هاديء في مقهي أويت اليه بقيت هناك لسنوات أحسب دقات الساعة ذات الميل الواحد فقد سقط عنها ميلا الدقائق والثواني وحسنا فعلا حين سقطا وإذاً لأهلكني العد ولفقدت حساب ما بعد الدقيقة الأربعين . كان انفجاراً مزدوجاً فبعد أربعين دقيقة دوّى الأنفجار الثاني الذي فقدت به ولدي أمل ، كان مروّعا يا سيدي لذا فأن اسم ولدي أمل لايزال على طرف لساني أتفاجأ دوما بتلفظه كلما تلبسني ذهول من موقف محدد أو موقف ما قد يرعبني بشكل مفاجيء لذلك كان جوابي ذاك الذي استهجنته أنت حين أجبتك باسم أمل ، أما الحقيقة فأنا هو سالم الشعلان بدمه ولحمه وأعتذر لكم يا سيدي القاضي .

– طيب.. هل تعرف إذاً لماذا تم إلقاء القبض عليك حين لمحك رجال الأمن وأنت تخرج من مقهى جابر متجهاً صوب الشارع المؤدي الى جسر الشهداء ؟

– كلا يا سيدي لم يعلمني أحد بالسبب الذي أدى الى اعتقالي منذ أن احتجزت الى اليوم لا أدري سبب إحتجازي وقد قضيت هذه الفترة من السجن مع مجموعة من المحتجزين و لم أفهم منهم سببا في احتجازنا .!

– طيب ، سأخبرك أنا سبب احتجازك : أ لم تكن أنت بنفسك موجوداً في محيط الحادث حين وقع الأنفجار و لم تصب بأذى وقد سجلت كاميرات المراقبة هناك تواجدك قبل الحادث وبعده ولكنك اختفيت فيما بعد .

– نعم يا سيدي ، كان موقع الأنفجار لا يبعد عني أكثر من عشرين متراً.

– ها أنت قد اعترفت بذلك ، وأريد منك أن تجيبني على السؤال التالي .

– أين ذهبت مباشرة في اللحظة التي أعقبت الأنفجار ؟ ولماذا إختفيت بهذه السرعة . علماً بأن رجال الأمن قاموا بالسيطرة على الموقف وتم لهم إحتجاز كل الذين كانوا قريبين من مكان الحادث وقد تم التحقيق معهم جميعا وأطلق سراح بعضهم وقد اعترف بعضهم بأنهم قد رأوك رأي العين في مكان الأنفجار ونحن نبحث عنك طيلة هذه المدة و لم نجد لك أثراً مما زاد في شكوكنا ، لذا فأنا أوجه لك تهمة الأشتراك في عملية التفجير الأجرامي الذي حدث في ذلك التاريخ في شارع حيفا ، فماذا تقول؟ ؟

– بعض ما ذكرته أنت صحيح يا سيدي ولكني أقول بأنني بريء وأن ما حدث هو أني كنت واقفاً عند باب دارنا القريبة من موقع الأنفجار بانتظار عودة ولدي أمل على عادتي في أغلب الأيام وعندما سمعت دوي الأنفجار هرعت الى مكان الحادث وفي اللحظة لمحت ولدي أمل وبقية زملائه يحملون الجرحى لينقلوهم الى سيارات الأسعاف القريبة والتي لا تستطيع الدخول بسبب النيران المتأججة هنا وهناك في أبدان السيارات والمحلات المجاورة للحادث عدت الى دارنا لأخبر زوجتي بما يحدث فلم أجدها هناك خمّنت أنها خرجت تبحث عنا أنا وأمل في تلك اللحظة حدث الأنفجار الثاني في المكان نفسه حينذاك هرعت الى المكان ، كانت جهنم لا تزال مستعرة دخلت في وسط النيران اتقافز بين الأشلاء حتى وجدت زوجتي سحاب تحتضن إبنها أمل الذي لم يبق منه سوى أشلاء مبعثرة ، منذ تلك اللحظة يا سيدي فقدت الأحساس بكل شيء فقدت الأحساس بالزمن وتلاشى في ناظري المكان جلست في باب دارنا أياما معدودات لم أجرأ على الدخول اليها خصوصا بعد أن افتقدت زوجتي التي غادرت عائدة الى بلدها بعد

أن فقدت ولدها وزوجها الذي تركها وسكن مقهى جابر ، وحين ضاقت بي الدنيا خرجت من المقهى بعد أن التمستُ لنفسي عذراً فألقي القبض علي وأودعت الحجز في السجن ثم جيء بي إليكم ، وهذه هي الحقيقة يا سيدي بتفاصيلها فأين الذنب الذي اقترفته وكيف أتهم بتفجير شارع حيفا وأنا الذي فقدت فيه ولدي الوحيد فلذة كبدي وفقدت زوجتي التي أكن لها مدائن حب ، وكيف أكون سبباً في مقتل أعز الناس وأقربهم الى قلبي ووجداني وهما جزء من كياني وهما ربيع حياتي ، وها أنا أقدم أمامكم الجيران والأهل كشهود على ما أقول تستطيعون أن تحققوا معهم كي تصلوا الى الحقيقة وتدركوا واقع الأمر وتتأكدوا من كل ما ذكرته لكم سيدي '' .

ــ وهل لديك ما يثبت أن ابنك أمل قد سقط شهيدا في تلك الواقعة ؟

ــ نعم ، شهادة الوفاة الخاصة بولدي أمل التي تؤكد سبب الوفاة وتاريخها ومكانها وشهادات الشهود .

ــ عليك إذن جلب شهادة الوفاة لأيداعها في إضبارتك .

تأمل قاضي التحقيق قليلا ثم عاد اليه :

ــ يطلق سراحك الآن بكفالة على أن تجلب معك الأوراق المطلوبة والشهود في يوم المرافعة .

أخذه السجان مع الملف الخاص به وقرار قاضي التحقيق ثم أفرج عنه . لكن الحيرة بقيت تلازمه رغم امتلاكه حريته كاملة وعودته الى داره وتحرره من تلك الحالة المقيتة التي لازمته ردحا من الزمن التي تمثلت في التجائه الى تلك

المقهى وعزوفه عن ممارسة حياته الطبيعية ، إضافة الى تحرره من تلك التهمة التي الصقت به دون علمه .

لكن الحيرة التي بقيت تلازمه وتقلقه وتحرمه النوم فلم يكن يتذوق طعم النوم لعدة أيام مرت حقيقة ظهور ولده أمل ودخوله الخفي في حياته حيث كان يتعامل معه كأنه موجود فعلا وحقيقة واقعة في حياته وكم تمنى أن يلتقيه مرة أخرى كي يقع على حقيقة الأمر .

وهو يجلس على مقهى جابر التي عاود الجلوس فيها كل يوم كأحد روادها كانت جلسته وحيدا خارج المقهى مصوبا نظره نحو نهر دجلة متأملا في سريان مائه الهاديء الوديع ، مفكرا في أمر ولده أمل وهو العقدة الوحيدة التي بقيت تلازمه وتمز كيانه بل تقلقه فقد سيطر عليه وجوم من نوع خاص وذهول لا يزال يلازمه وقد تملكه خوف من أن يعود الى حالته التي تحرر منها أخيرا خصوصا بعد أن أخذ يبتعد في اليومين الأخيرين عن أهله وزملائه . وهو يجلس وحيدا خارج المقهى على أحد مقاعدها ، أحس بأن أحداً يُربّتُ على كتفه وجلس الى جانبه ، كان ذلك الشاب الذي اقتاده الى خارج المقهى والذي رافقه طيلة فترة احتجازه في السجن ، جفل سالم باديء الأمر لكن الشاب حاول أن يطمئنه قائلا :

– لقد وعدتك يا أبي أن أعود إليك وهأنذا معك لأبعد عنك هاجس الخوف والحيرة التي تملكتك ولكي تتأكد من حقيقة أنني روح إبنك أمل ، حضرت متقمصا هيأة شاب قد لا تعرفه لأنقذك مما كنت فيه إذ كنت أخرج كل يوم أتفقد أحوالك وأساعدك في بعض أمورك آتيك بهيئات مختلفة وأشكال شتى ،

وكان يتعبني كثيرا ما أنت فيه ويقلقني ملازمتك تلك المقهى وتركك السكن في دارك بين أصدقائك وجيرانك الذين يئسوا من إعادتك اليها ، وكم كان يزعجني حين أراك تطلب المساعدة من رواد المقهى وهم يتكرمون عليك بما تجود به أيديهم وأنت فاقد الذاكرة بطيء الفهم ، كنت أزورك يا أبي كلما سنحت لي الفرصة أن أخرج من قبري أدور أحيانا بين مكان الأنفجار وبين بيتنا الذي خلا من أهله ثم آوي اليك، أزورك في المقهى دون أن تشعر بوجودي بل دون أن تعرفني .

حين جئت اليك ذات يوم كنت قد أزمعت فعلا أن آخذك الى مكان أفضل مما أنت فيه مكان تعيش فيه بما يليق بك وأنقذك من تلك الحالة المزرية في تلك المقهى البائسة . وحين خرجنا الى الشارع معا وعرفوك تمام المعرفة وهم موكلون بالقبض عليك بموجب الأمر الصادر من قاضي التحقيق ألقوا القبض عليك دون أن ينتبهوا لوجودي معك إذ لم يكن لأحد أن يراني سواك ، وقد أودعوك في التوقيف الذي احتجزت فيه لفترة ليست بالقصيرة وكنت أنا قد لازمتك طيلة تلك الفترة حتى مثولك أمام القاضي وقد تعمدت حين سألك القاضي عن إسمك أن أبادر أنا ذاكراً إسمي أنا كاملا ، كي انبهك الى وجودي ومغادرتي في الوقت نفسه وأجعلك مستعدا بكامل وعيك لتجيب على أسئلة القاضي كاشفا الحقيقة وبما يليق "حاول سالم أن يحتضن ولده وهمّ أن يقبله لكنه لم يستطع فقد غاب عنه واختفى فجأة وهو يقول" مع السلامة يا أبي ، لن أزعجك بعد اليوم..

22/نيسان /2016
المسيب / بابل

سيرة ذاتية

الأسم الكامل : توفيق حنون علي دريب المعموري

* الأسم الأدبي : توفيق حنون المعموري
* تولد : 1948 قضاء المسيب / محافظة بابل
* التحصيل الدراسي : بكالوريوس لغة عربية – كلية التربية / جامعة بغداد 1969م
* الصفة : شاعر وروائي
* المهنة : مدرس – متقاعد
* عضو الأتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
* عضو إتحاد الأدباء الدولي
* عضو اتحاد الصحفيين العراقيين
* رئيس منتدى أدباء المسيب / بابل

النشاط الأدبي والثقافي :

1. **في مجال الشعر : صدرت له المجاميع الشعرية التالية :**
   أ. فراشات / مجموعة شعرية / 1995.
   ب. للكلمات نكهة الرماد / مجموعة شعرية / 2006.
   ج. أبحث عن مأوى لظلي / مجموعة شعرية / 2008.
2. **في مجال الرواية والقصة : صدرت له الروايات التالية :**
   أ. (الخلوي) رواية: المركز الثقافي / بابل / طبعة دمشق 2013.

ب. (للهروب خطوة أخرى) رواية / دار موزوبوتاميا / بغداد – دمشق 2014.

ج.(درابين) رواية / دارجان / ألمانيا 2016.

3. **في مجال الترجمة:**

صدر له كتاب واحد بعنوان (حكايات اليوربا) تأليف الكاتب النيجيري مايك إمولي عن المطبعة العصرية ، بابل 2012.

4. **الكتب المخطوطة الجاهزة للطبع :**

أ. المجموعة الشعرية الكاملة وتهتم بما نشر في المجاميع الثلاثة وما لم ينشر.

ب. شوّاكة سويلم/ رواية مخطوطة. جاهزة للطبع والنشر

ج. الصخرة المسحورة / رواية نيجيرية مترجمة عن الأنكليزية لكاتب نيجيري.

5 - **بحوث أدبية**

أ. كتاب بعنوان (نظرات في ديوان إبن رشيق القيرواني) دراسة بحثية .

ب. كتاب بعنوان (الحماسة في شعر المتنبي) دراسة

ج. المتاهة / مختارات من سيرة ذاتية .

6. نشرت له العديد من الصحف والمجلات العراقية والعربية الكثير من القصائد والقصص والمقالات الأدبية وكذلك المواقع الإلكترونية ومواقع التواصل الأجتماعي. شارك في مختلف المهرجانات الأدبية في العراق وبعض بلدان الوطن العربي .

7. كتب عنه العديد من المقالات النقدية في الصحف العراقية وقد تم تأليف كتاب عنه بأسم (بواكير) طبعة بابل /المطبعة العصرية / ألفه و نشره الأديب مهدي المعموري.

8. حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية من جهات أدبية وثقافية مختلفة.

9. وردت عنه ترجمات مع سيرته الذاتية في الكتب التالية :

أ. أدباء وكتاب بابل المعاصرون ، تأليف عبد الرضا عوض ، ج2، ص54، 2007م .

ب. انطولوجيا القصة البابلية / ديوان القصة ، تأليف الدكتور سعد الحداد ، دار بابل للثقافات والفنون، ص62 ، مؤسسة بلاد النهرين / بابل – بغداد – زيورخ ، 2013.

إضافة الى العديد مما كتب عنه من نقود ولقاءات وحوارات في كتب ومجلات أدبية وصحف عراقية وعربية .

- البريد الإلكتروني الإلكتروني: tawfikhen@yahoo.com
- موبايل : 07822182525